
الحجّاج
الأمير المظلوم
بقلم: سارة زهير

الإهداء

إهداء لكل رجل...

إهداء لكل امرأة...

إهداء لكل باحث عن الحقيقة...

إهداء لمن ألهمني أن أكتب هذا الكتاب...

ها أنا أهديه إليكم. فهذا ثمرة ما قرأت.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم. والصلاة والسلام على محمد ابن عبد الله ﷺ الذي أخرجنا من الظلمات إلى النور وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين...

أما بعد، فإنه منذ نعومة أظافري منذ كنت في المرحلة الإعدادية الأزهرية وأنا أدرس أن الحجاج بن يوسف الثقفي كان سفاحا وظالما وطاغية متجبرا، وهذا أيضا ما كنت أسمعه في برامج التلفاز سواء كانت دينية أم حوارية. حيث كان يضرب به المثل في الطغيان وسفك الدماء.

وفي نفس الوقت كنت أدرس في المطالعة عن أناس كانوا يحضرون في مجلسِه ويقومون بهجائِه وزجره وكان يخلي سبيلهم، ولكن هذا ليس ما عهدتُه عن المتجبرين والظالمين لا في الأولين ولا في الآخرين. فليس من شِيَمِ الطغاة أن يُخَلّوا سبيل منتقديهم ولا زاجريهم، بل يقومون على الفور بقطف أعناقهم، مما أثار حيرتي.

وهذا حتى شاهدت مقطعاً مصوراً لعبد الله الشريف على (اليوتيوب) في نهايةِ شهرِ شعبان السالف يتحدث فيه عن الحجاج بن يوسف الثقفي، وكيف كان طاغيةً مستبداً متكبراً وفي نفس الوقت كريماً جواداً.

لذا قلتُ كفى للشَّك، وقررتُ أنْ أقْطَعَه باليقين وأنْ أصِلَ إلى الحقيقة. وعكفتُ على دراسةِ الحجاج وشخصيتِه، حتى اطَّلَعْتُ على ثمانيةٍ وثلاثين كتاباً وهالني ما قرأت...

ووجدتُ أن كل ما سمعته طوال تلك السنوات لا يعدو على أن يكون ظُلْماً بيّناً في حقِّه وأشياءً تغوص في بحر الأساطير، ليس هو فقط بل والأمويين بأسرهم من سبٍّ وتشويه، بالرغم ما كان في عهدهم من نشر للإسلام والفتوحات. ووجدتُ أن كل ما فعل لم يكن دون مبررٍ قويّ يدفعه لفعل تلك الأمور...

الأمر الذي سأوضحه في سطور هذا الكتاب الذي سيَصْدِمُ الكثيرين. حيث سأقوم بالحديث عن زمن الخلافة الأموية، نسب الحجاج، نشأته، خصاله، سياسته، حياته ووفاته.

واللهُ ﷻ أعلى وأعلم والسلام.

سارة زهير علي

الخلافة الأموية

الخلافة الأموية وسمتها:-



(1)

---

(1) أطلس تاريخ الدولة الأموية ص13.

بدأت الخلافة الأموية بمعاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنهما - ، ولكن كيف تولى معاوية الخلافة؟ يظن البعض أن معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنهما - قد اقتنص الخلافة، إلا أنه قد حدث العكس تماماً، فقد رأى الحسن أن الغلبة ستكون لمعاوية وهذا لأن معاوية يملك حزباً قوياً في الشام يسانده ويؤازره، بخلاف حزبه وأتباعه الذين لم يكونوا يساندونه عن ظهر قلب وأن قلوبهم لم تكن فيها ولاء له. وقد شك في ذلك بعد محاولة معاوية رشوة قائد جيشه ونجاحه في استمالة عبد الله ابن عباس - رضي الله عنهما -، كما أنه قد فقد ثقته بأهل الكوفة بعد أن خرجت عليه فئة منهم واتهمته بالكفر ثم هاجموه وجرحوه، فرأى أن الحل المناسب هو حل المفاوضات بينه وبين معوية بعدما أصبح ظاهراً أنه لا قبل له بمعاوية وجيشه.ونتج عن المفاوضات بينه وبين معاوية الآتي:-

١- تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية.

٢- أن يكون الأمر بعده شورى.

***وفي رواية أن الأمر سيكون لمعاوية ما دام حياً، فإذا مات فالأمر للحسن.**

ودخل معاوية الكوفة بهذا الصلح وبايعه الحسن والحسين واجتمع عليه الناس وكان هذا في عام ٤١ هـ وسمي هذا العام بـ (عام الجماعة). [1]

ولما تم الصلح بشروط الحسن - رضي الله عنه - برز بين الصفين وقال: إنِّي قد اخْتَرْتُ ما عند الله وتَرَكْتُ هذا الأمْرَ لمعاوية، فإن كانَ لي فقد تركتُه لله، وإنْ كانَ له فما ينبغي لي أن أنازعَه، ثم قرأ: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِيْنٍ﴾[2] وَكَبَّرَ الناس فرحاً، واختلطوا من ساعتهم[3].

***وهذا ما كان ينبغي أن يكون؛ لأن الخليفة - أو الرئيس أو الملك أو السلطان أياً كان المسمى - لكي ينجح وتقوم دولتُه لابد أن تتوفر فيه شروط من أهمها:-**

١- أن يكون حزبه قوياً ولديه أتباع أقوياء يشدون من أزره: وهذا ما كان متمتعاً به - معاوية رضي الله عنه - على عكس الحسن - رضي الله عنه - والذي فَطِنَ إلى ذلك فسلم الخلافة لمعاوية والذي كان هو الأولى بها في تلك المرحلة.

٢- أن تتم له البيعة: وهذا ما حدث حينما بويع معاوية من قبل الحسن والحسين واجتماع الناس عليه في (عام الجماعة).

---

[1] تاريخ الدولة الأموية ص15

[2] سورة الأنبياء الآية: 111

[3] شذرات الذهب ج1 ص228،228.

بيعة معاوية لابنه يزيد ابن معاوية بالخلافة:-

وجاءت سنة ٥٦هـ والتي بويع فيها ليزيد بن معاوية في حياة أبيه.
حيث أشار المغيرة بن شعبة على معاوية - رضي الله عنهما - بأخذ البيعة لابنه يزيد - وكان المغيرة وقتها والياً على الكوفة - فأخبره معاوية أن يعمل على بيعة يزيد فيها.

حيث ذكر الطبري في روايته المشهورة قال: بايع الناس ليزيد ابن معاوية غير الحسين بن علي وابن عمر وابن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر وابن عباس؛ فلما قدم معاوية أرسل إلى الحسين بن علي، فقال اسْتَوْسَقَ[1] الناس لهذا الأمر غير خمسةِ نفر مِنْ قريش أنتَ تقودُهم يا ابن أخي فما إرْبَكَ إلى الخلاف؟ قال: أنا أقودهم! قال: نعم، أنت تقودهم؛ قال: فأرْسِلْ إليهم، فإن بايعوا كنتُ رجلاً منهم، وإلا لم تكنْ عجلت عَلَيَّ بأمر؛ قال: وتفعل؟ قال: نعم؛ قال: فأخذ عليه ألا يُخْبِرَ بحديثِهم أحداً قال: فالتوى عليه، ثم أعطاه ذلك، فخرج وقد أقعد له ابن الزبير رجلاً بالطريق قال: يقول لك أخوك ابن الزبير: ما كان؟ فلم يزل به حتى استخرج منه شيئاً.
ثم أرسل بعده إلى ابن الزبير، فقال له: استوسق الناس لهذا الأمر غير خمسة نفر من قريش أنت تقودهم؛ يا ابن أخي! فما إربك إلى الخلاف؟ قال: أنا أقودهم؛ قال: فأرسل إليهم فإن بايعوا كنت رجلاً منهم، وإلا لم تكن عجلت علي بأمر؛ قال: وتفعل؟ قال: نعم؛ قال: فأخذ عليه ألا يخبر بحديثهم أحدا؛ قال: يا أمير المؤمنين، نحن في حرم الله عز وجل، وعهد الله سبحانه ثقيل، فأبى عليه، وخرج.
ثم أرسل بعده إلى ابن عمر فكلَّمَه بكلام هو أليَن من كلام صاحبه، فقال: إني أرهب أن أدع أمة محمد بعدي كضأن لا راعي لها، وقد استوسق الناس لهذا الأمر غير خمسة نفر من قريش أنت تقودهم، فما إربك إلى الخلاف! قال: هل لك في أمر يُذْهِبُ الذم، ويَحْقِنُ الدَّم، وتُدْرِك به حاجتك؟ قال: وَدَدْتُ! قال: تبرز سريرك، ثم أجئ فأبايعك، على أني أَدْخُلُ بعدَك فيما تجتمع عليه الأمة، فوالله لو أن الأمة اجتمعت على عبد حبشيٍّ لدخلتُ فيما تدخل فيه الأمة؛ قال: وتفعل؟ قال: نعم، ثم خرج فأتى منزله فأطبق بابَه، وجعل الناس يجيئون فلا يأذن لهم.
فأرسل إلى عبد الرحمن ابن أبي بكر، فقال: يا ابن أبي بكر، بأية يد أو رجل تقدم على معصيتي قال: أرجو أن يكون ذلك خيراً لي؛ فقال: والله لقد هممت أن أقتلك؛ قال: لو فعلتَ لأَتْبَعَكَ الله به لعنة في الدنيا، وأدخلك به في الآخرة النار.
قال: ولم يذكر ابن عباس[2].

---

[1] استوسق: اجتمع.
[2] تاريخ الطبري ج5 ص103، 104.

ثم أعلن معاوية رسمياً البيعة لابنه يزيد في سنة ٥٦هـ، وجرت الاحتفالات بالتنصيب في دمشق إلا أن الحجاز كان غائباً عن هذه الاحتفالات. وخشي معاوية من تطوُّر العصيان فقرر الذهاب إلى المدينة لأخذ البيعة من أهلها، وما إن وصل إلى المدينة حتى ذهب المعارضون إلى مكة، وبايعه الباقون في المدينة.

ثم استطاع بعد ذلك حمل المعارضين على الاعتراف ببيعة يزيد باستثناء الحسين ابن علي وعبد الله ابن الزبير[1]

وبعد أخذ معاوية لابنه بالبيعة كان هناك ثلاث فئات متصارعة في عهد معاوية:-

١- الفئة الأول: وهي الفئة المتذمرة من تلك البيعة التي تنتظر موت معاوية حتى تفصح عن موقفها السلبي، والتي ترى أن الحكم الوراثي يعتبر دخيلاً على العرف العام والعادات الإسلامية.

٢- الفئة الثانية: وهي الفئة الموالية للحكم الأموي.

٣- الفئة الثالثة: وهي الفئة التي تنحو نحواً شيعياً وهي الفئة المتعصبة لحكم آل البيت المعتبرة أن الحكم لابد أن يكون في بني هاشم لا غيرها وتعتبر هذا حقاً دينياً وهي بالطبع رافضة لبيعة يزيد لكنهم ينتظرون موت معاوية لإعلان ذلك[2].

*وكان من الأولى عبد الله ابن الزبير، حتى أنه ذُكر أنه كانت نفسه تُحَدِّثُه بالخروج على معاوية حتى أنه قد سمى بيت مال الديوان وبيت الخلافة وما إلى ذلك في عهد معاوية، وفي روايات عدة ذُكر فيما معناه أن معاوية كان يعطي ابن الزبير ما كان يطلب من مال درئاً للفتنة.

ولما مات معاوية وجاءت بيعة يزيد بن معاوية إلى المدينة، انشمر منها ابن الزبير والحسن بن علي إلى مكة وأقاما بها.

ولما مات يزيد بن معاوية وابنه معاوية بن يزيد من بعده استفحل أمر ابن الزبير وبويع له بالحجاز والعراق ومصر وبايع له الضحَّاك بن قيس بدمشق وأعمالها، حتى استرد مروان[3] ابن الحكم - الخليفة من بعد معاوية بن يزيد - الشام ومصر وجهز السرايا إلى

---

[1]تاريخ الدولة الأموية ص26.

[2]المرجع السابق ص23، 24.

[1] مات مروان بن الحكم في رمضان سنة ٦٥هـ، وعهد بالأمر لابنه عبد الملك بن مروان. وكان مروان بن الحكم فقيها، وكان كاتب السر لابن عمه عثمان - رضي الله عنه - (شذرات الذهب ج1 ص289).

العراق ومات من بعدها، واستكمل من بعده عبد الملك ابن مروان[1] فاستردَّ العراق وأرسل الحجاج إلى الحجاز فقتل عبد الله بن الزبير واستردَّها منه[2].

***وسنعرض بالتفصيل لهذه الحادثة عند الحديث عن محاربة الحجاج لعبد الله ابن الزبير.**

***وغيرها وغيرها من الأمور الجِسَام، والميول المتباينة، والحركات الخارجة على الدولة الأموية. فكان عصر الدولة الأموية عصر فِتَن؛ فَكُلُّ واحد أعجبته نفسه نادى لنفسه بالخلافة، فكان لابد لها من رجلِ دولة كالحجاج لا يتهاون في شَقِّ عصا المسلمين ويزجر من يحتاج إلى الزجر.**
وكل من كان يلعن الحجاج ويسبه من حينها إلى الآن، فإنه يفعل لذكره أنه قتل كثر منهم آل بيتٍ وفقهاء، فيتعصَّبون للنَّسَب ولا يسألون عن السَّبَب.

وصدق الرسول الكريم إذ يقول: ((يا مَعْشَرَ قُرَيْش! اشْتَرُوا أنفسَكم مِنَ الله، لا أُغْنِي عنكم من الله شيئا، يا عباس بن عبدِ المطَّلِب! لا أغني عنكَ من الله شيئا، يا صفيةَ عمةِ رسول الله! لا أغني عنكِ من الله شيئا، يا فاطمةَ بنت محمد! سَلِيْني من مالي ما شئتِ لا أغني عنكِ من الله شيئا))[3].
هل يظنون أن النسب يُخَوِّلُ لِصاحبِه أنْ يفعلَ ما يحلو له دونَ مساءلةٍ أو حساب؟ إذاً لهلكتْ الدولة.

ويأخذ كثير من الناس على معاوية بن أبي سفيان مبايعته لابنه بالخلافة من بعده في حياتِه، ظناً منهم أنَّه أبْدَع الوراثة في الخلافة الإسلامية، إلا أن ذلك ليس بالأمر الصحيح.

فالوراثة في الحكم الإسلامي وُجدت قبل ذلك بمئات السنين، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ داوۥد﴾[4] ، إلا إذا ظنَّ البعض أن هذا ليس بالحكم الإسلامي، كيف ذلك وأنَّ كل الأنبياء مسلمون؟!

هذا وقد يردُّ البعض أن الله قد أورثَ سُلَيمان - عليه السلام - النبوةَ من بعد داوود - عليه السلام -، فأرُدُّ بأن النبوةَ لا تُوَرَّث، فالنبوة هي اصطفاء من الله عز وجل لرجلٍ لخصال معينة فيه، وإنما المُلْك هو الذي يورث.

---

(2)كان عبد الملك بن مروان غزير العلم ومحدّثا، روى عنه الزُّهْرِيّ وغيره، وكان قبل الخلافة عابدا ناسكا، وتولى الخلافة بعد أبيه مروان تملك بعد أبيه الشام ومصر، وقتل مصعب بن الزبير الذي كان مستوليا وقتها على العراق، وبعث الحجاج إلى الحجاج لمحاربة ابن الزبير(سير أعلام النبلاء ج4 ص246، 247).

[2] البداية والنهاية ج9 ص116 : 118.

[3] صحيح الجامع للإمام الألباني ص1322.

[4] سورة النمل: جزء من الآية 16.

ولكن من شَوَّه سمعة التوريث هم الفرس والروم قبل الإسلام، فكانوا يستأثرون بخيرات البلاد ويتركون لشعوبهم الفُتات، ولم يكونوا يعتمدون في حكمهم على رضا الناس أو ما يعرف بالبيعة، بخلاف حكم يزيد بن معاوية بصفة خاصة، والحكم الأموي بصفة عامة.

كما أن الحكم الأموي لم يعتمد على التوريث بطريقة عمياء، وهو أنَّ المَلِك يورِّث ابنَه الحُكم حتى ولو لم يكن مُسْتَحِقّاً له من حيث الصفات، إلا أنَّ هذا لَم يَحْدُث في العصر الأمويّ. فإذا تأمَّلنا شجرة نسب الخلافة الأموية[1] لوجدنا ما يلي:-

١- أنَّ معاويةَ بن يزيد تولَّى بعده الخلافة مروان بن الحكم والذي هو عم أبيه يزيد، حتى أن مروان بن الحكم لم يكن عم يزيدٍ المباشر، وإنما كان ابن ابن عم أبو سفيان.

٢- كما أن سليمان بن عبد الملك أوصى بالخلافة من بعد لابن عمه عمر بن عبد العزيز ومن بعده يزيد بن عبد الملك أخيه.

٣- ومن بعد يزيد بن عبد الملك تولى أخوه هشام بن عبد الملك، ثم من بعد هشام تولى الوليد - ابن أخيه يزيد بن سليمان -.

٤- ومن بعد يزيد تولى إبراهيم بن الوليد - ابن عمه -.

٥- ومن بعد ذلك تولى مروان بن محمد - وهو عم إبراهيم غير المباشر -. فأبوه هو محمد بن مروان، أخو عبد الملك بن مروان.

***والمهم أن الخليفة في الدولة الأموية كانت له شروط، إذا اجتمعت تولَّى الخلافة، وإلا فلا.**

[1] هذا الكتاب ص1، أطلس تاريخ الدولة الأموية ص13.

قبيلة ثقيف ومنزلتها

أصل قبيلة ثقيف:-

*كان المجتمع وقتها في الجاهلية وصدر الإسلم والعهد الأموي مجتمعاً قَبَلِياً قائماً على العصبيات، فكل فردٍ ينتمي إلى قبيلةٍ يتعصَّبُ لها كما يتعصب الفرد لعائلته ويقف معها بالباع والذراع ويدافع عنها، وهي بلا شك مثار الفخر بين الناس. حتى وإن كان الإسلام جاء ووضع كل هذه المفاخرات والعصبيات، وجعل الحكم على الشخص من خلال تُقاه، إلا أنها حقيقةً استمرت بين الناس حتى وقتِنا هذا.

فانتماء الحجاج إلى قبيلة ثقيف كان من العوامل التي أثرت على شخصيته، فكان لابد من الحديث عن قبيلة ثقيف...

يختلف النسابون في تحديد أصل قبيلة ثقيف، حيث أن لهم فيها أربعة أقوال:-

١- الأول ينسبها إلى قيس عيلان: وأصحابه ينسبون ثقيفاً إلى قُصَيّ بن مُنَبِّه بن بكر بن هَوازن بن منصور بن عِكْرِمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مُضَر بن نزار بن مَعَد بن عدنان. ويتبنى هذا الرأى عدد من النَّسَّابة والمؤرخين العرب منهم (ابن هشام - وابن عبد البر - وابن حزم - والسمعانيّ - وابن خلدون).
*وقيل أن قيساً كان عبداً لِمُضَر فقيل قيس بن مُضَر وقيل هو ابنه.

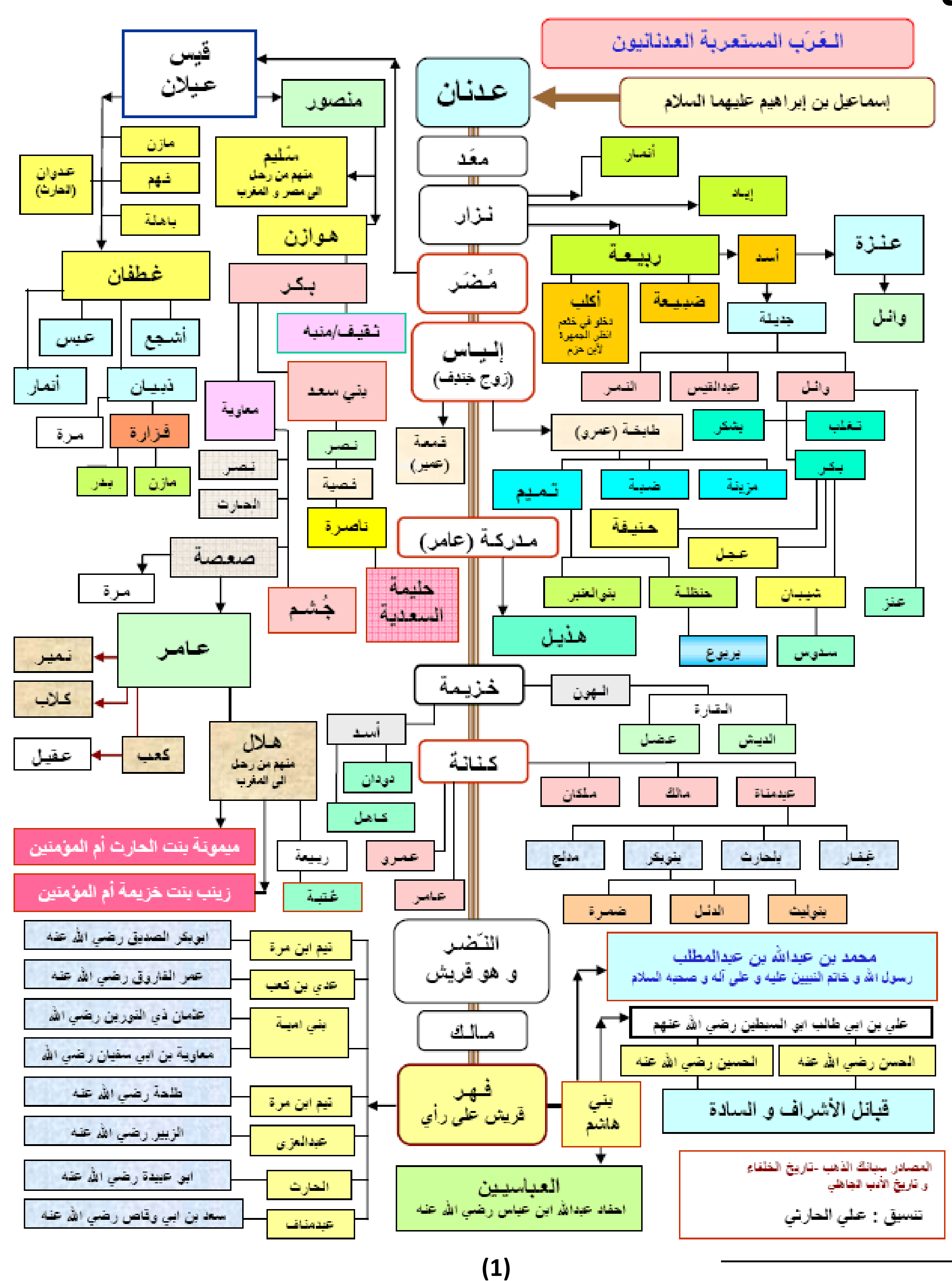
٢- والثاني ينسبها إلى إياد: وأصحابه يقولون أن ثقيفاً هو قُصيّ بن النبيت بن مُنَبِّه بن منصور بن يقدم بن أَفْصَى بن دُعْمي بن إياد بن نزار بن معد بن عدنان. ويتبنى هذا الرأي عدد من النسَّابة والمؤرخين العرب منهم (هشام بن محمد الكلبيّ - وابن إسحاق - واليعقوبيّ - والبَكْرِيّ - وابن المجاور - وابن خَلْكان). ويرى بعضهم أن ثقيفاً كان أصلها يرجع إلى إياد، إلا أنها انتسبتْ إلى قيس عيلان في ظروف غامضة.

*ويرى المستشرق البلجيكي هنري لامانس أن ثقيفاً أقدمت على تغيير نسبها من إياد إلى قيس عيلان تماشياً مع مصالحها المادية في زمن صارتْ فيه الغلبة لقبائل قيس عيلان.

*وهذان الجدان - أي قيس عيلان و إياد - يلتقيان في جد واحد وهو: مَعَد بن عدنان.

٣- والثالث أخرج ثقيف من العرب العاربة والمستعربة ونسبها إلى قبيلة ثمود إحدى قبائل العرب البائدة.

٤- والرابع يقول أن ثقيفاً كان عبداً لنبي الله صالح - صلى الله على نبيِّنا وعليه -، وعرف أيضاً بأبي رُغال وأنه هرب منه واستوطن مكة، وقيل أنَّ ثقيفا كان شاطراً جائراً في الزمن الأول، وقيل أنه كان دليلاً للأحباش عندما جاءوا لهدم الكعبة لكنه مات في الطريق.



(1)

---

(1) مشجرة أنساب العرب ص11.

والمهم** أنه عند ظهور الإسلام، كانت ثقيف تنتسب إلى ***هَوازِن وقيس عيلان - أي القول الأول -، ويتمسك معظم الثقفيين بهذا النسب ويتعصبون له ويتفاخرون به، ***ومنهم الحجاج الذي كان شديدَ العصبية لهذا النسب***.

بطون قبيلة ثقيف:-

يُذكر أن ثقيف لما نزلت إلى الطائف تغلبت على من حولها وأصبحت ذات بأس، وأدى تكاثرها إلى انقسامها إلى بطنين كبيرين هما:-

١- عوف

٢- جُشم

تحالفت *عوف* مع *غاضرة* - وهي بطن من جُشم بن مالك - ضد بني مالك بن حُطَيْط بن جُشم، فسموا بذلك *(الأحلاف)*، وعرفت بقية جُشم ببني مالك.

***وكان من الأحلاف الحجاج بن يوسف الثقفي وأخوه - والي اليمن -، ومعتب بن مالك بن كعب الذي بعثه الرسول ﷺ إلى قومه ليدعوهم إلى الإسلام فقتلوه، وعروة بن مسعود أول شهيد من ثقيف وأحد الرجلين الذين قصدتهما الآية الكريمة: ﴿وقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هذا القرءان على رجل من القريتين عظيم﴾[1] ، والمغيرة بن شعبة، وغيرهم...**

فكانت قبيلة ثقيف قبيلة ذات شأن آن ذاك، وخرج منها شخصيات بارزة كثر.

***والغرض من ذكري لأصل نسب ثقيف؛ أن أعداء الحجاج كانوا يستغلون الاختلاط في نسبه لهجائه، فقد قال العُدَيْل بن الفرخ هاجياً للحجاج وناسباً له لقبيلة ثمود:-**

لئن أَرْتَجَ الحَجَّاجُ بالبُخْلِ بَابَه — فَبَـابِي الْفَتَى الأَزْدِيُّ بِالـعُرْفِ يَـفـتحُ[2]

وَلَـيْسَ كَـعِلْجٍ مِنْ ثمودَ بكـفِّه — من الجُودِ والمَعْرُوفِ حَزْمٌ مُطَوْجَحُ[3]

فَرَدَّ الحجاج على هذا الادعاء بدليل من القرآن الكريم: ﴿وأنه أهلك عاداً الأولى ۝٥٠ وثمود فما أبقى ۝٥١﴾[4] .

وقال أيضاً: (يقولون إني من بقيةِ ثمود، وهل بقيَ من صالحٍ إلا المؤمنون).

---

[1] سورة الزخرف: الأية (31).
[2] أرْتَجَ: كَثُرَ وهاج.
[3] العِلْج: كل جاف شديد من الرجال، والعلج أيضاً هو الحمار.
[4] سورة النجم: الآية: 50، 51.

وقال عبد الله بن الزبير شاتماً ثقيف في خطبةٍ خلال فترة حصار الحجاج له: (قصارُ الخدودِ، لئامُ الجدودِ، سودُ الجلودِ، بقيةُ ثمود).

وقد رُوِيَ أن عبد الملك بن مروان حُشِر بين الحجاج وبين كَثير من هراشة الكلاب فقال: (يا كثير ممن ثقيف؟) فقال: (يا أمير المؤمنين العلماء بالنسب يزعمون أنهم من إياد...) فقال الحجاج: (معاذ الله يا أمير المؤمنين نحن من قيس، ثابتةٌ أصولُنا، باسقةٌ فروعُنا، يَعْرِفُ ذلك قومُنا، وقد قال شاعرنا:-

وإنا معشرٌ مِن جِذْمِ قَيْس فَـنِسْـبَتُنَـا ونِسْـبَتُـهم سَـوَاءُ

هُـمُوْ آبـاؤُنا وبَنَـوْا عَـلَـيْنَـا كَمَا بُنِيَتْ عَلَى الأرْضِ السَّمَاءُ

وقال الحجاج يوما لأبي العسوس الطائي: (أيٌ أَقْدَم؟ أَنُزُول ثَقِيفٍ الطّائف أم نُزُول طَيئ الجَبَلَيْن؟)، فقال أبو العسوس: (إنْ كانَتْ ثقيف من بَكْر بن هوازن فنزول طيئ الجبلين قبلها، وإن كانت ثقيف من ثمود فهي أقدم). فقال الحجاج: (يا أبا العسوس، اتَّقِني فأنا سريـع الخَطْف للأحْمَق المُتَهَوِّك)[2][1] .

وكانت ثقيف في الجاهلية شديدة الشِّرْك حريصة على معتقداتها، وكانت في الإسلام أشَدَّ تمسكاً به.

*والخلاصة أن الحجاج بن يوسف الثقفي كان نسيباً معتداً بنسبه، فكان من قبيلة ذات شأنٍ في الجاهلية والإسلام، مما أثر بالإيجاب على شخصيته، فكان رجلاً عزيزاً في قومه قوياً شجاعاً لا يقبل الضِعةَ ولا الذُّل.

---

[1] جمهرة النسب ص311، 312، 385، 386.

[2] قراءة في سيرة الحجاج بن يوسف الثقفي ص31 : 34.

اسمه، نشأته وسماته

ترى من هو الحجاج؟!

هو الحَجَّاج بن يوسف بن الحَكَم بن أبي عُقَيْل بن مَسْعُود بن عامر بن مُعَتّب بن مالك بن كعب الثقفي أبو محمد[4][3][2][1] .

لم يكن المؤرخون وقتها يهتمون بسنة الميلاد، وإنما كانوا يهتمون بسنة الوفاة، لذا اختُلف في سنة ميلاد الحجاج، إلا أن معظم المؤرخين والباحثين يقولون أنه وُلد في سنة ٤١هـ[6][5].

وُلد الحجاج في الطائف معقل ثقيف في قرية بني صخر الواقعة على جبل الهَدَى.
وأمه هي الفارعة بنت همَّام بن عروة بن مسعود الثقفيّ نسيبة من بني ثقيف، وأبوه هو يوسف بن الحَكَم الثقفيّ من سادات ثَقِيف وأشرافها.

رُوِيَت أساطير عن مولده لم يكن لها غرضٌ إلا التجريح فيه وتأويلاً لسبب سفكه للدماء، فقيل أنه وُلِد بدون دُبُر فنُقِّب عن دُبُرِه، ورُوِيَ أيضاً أنه لم يقبل أن يرضع من أمه أو غيرها، فذبحوا جدياً أسوداً فسَقَوْه من دمِه ثم من دمِ ثعبانٍ أسود ولطَّخوا وجهه بدمه، فقَبِلَ الرضاع من أمِّه في اليوم الرابع[8][7].

***وهذه القصة إن دلت على شئ، فلا تدل إلا على الخيال الواسع لراوي تلك الأساطير وسخفه، فيوسف بن الحَكَم الفقيه ومعلم القرآن لن يقوم بسقي ابنه حراما - وهو الدم -، كما أنه وإن كان قد فعل فهذا لن يجعل ابنه يرضع من أمه أو من غيرها، ولن يؤدي ذلك بالطفل أن ينموَ شخصاً سيكوباتياً متعطشاً للدماءِ ومتلذذاً بتعذيب الآخرين على حَدِّ زَعْم الرواة.**

---

(1) الجرح والتعديل ج3 ص168.
(2) التاريخ الكبير للبخاري ج2 ص373.
(3) المعارف لابن قتيبة ص395.
(4) سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون ص170.
(5) قراءة في سيرة الحجاج بن يوسف الثقفي ص37.
(6) سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون ص170.
(7) البداية والنهاية ج9 ص300.
(8) قراءة في سيرة الحجاج بن يوسف الثقفي ص38.

كان الحجاج شاباً لبيباً ذكياً، تعلم العلوم الشرعية عن أبيه الذي كان من سادات ثقيف وأشرافها كما أسلفنا، فصار من حفظة القرآن الكريم وأشدهم قراءة له حتى حسده عمر بن عبد العزيز على ذلك.

وأثّر نسب الحجاج على شخصيته واعتداده بنفسه، فكان يحسن من هندامه ويمشي مشية فيها عِزَّةُ النسيب، حتى انتقده البعض.
وكان الحجاج جواداً كريما مِعْطاءً، وهذا أكثر قادحة تقدح في كلام من قال أنه عمل بالدباغة واستحسنها لشدة فقره؛ فمن خصال الفقير البُخْل، فالفقير وقت الفقر لا يكون معه ما يكفيه فلا يعطي حتى يستطيع أن يتحمل كفاف العيش، فإذا اغتنى ظل مُقْتِراً بِحُكْم العادة. إلا أن عمله بالدباغة والرعي ليس بشئ مستبعد، حيث عُرِف عن العرب قديماً حب العمل وإرهاق صبيانهم فيه حتى يَشِبَّ رجلاً صلباً يُعْتَمَدُ عليه.

وإذا تعلم المرأُ الفقه والقرآن وثبُت في خلده كلام الله، أعطاه إيماناً وصار شجاعاً، يقدم على الموت حب غيره للحياة، فكان هذا هو الحجاج، شجاعاً مِقداماً مَهيباً وكان أيضاً حازماً بحكم الزمن الذي كان يعيش فيه، الذي كان مليئاً بالفِتَن.

كما كانت لتربيته في كَنَفِ أبيه الفضل في اكتسابه خُلُقاً قويماً، فكان بالإضافة إلى كرمه، كان يُعرف عنه أيضاً الصدق والأمانة واجتناب المحرمات كالخمر والميسر وما إلى ذلك، وكان غيوراً محافظاً على الشَّرَفِ والأخلاق.

فالنسب والعلم والإيمان والعادات والتقاليد المبنية على الأخلاق إذا ما اجتمعوا كوَّنوا خليطاً من الخصال التي قَلَّ ما تتواجد في شخص في زماننا هذا أو حتى في ذاك الزمان.

ويسبق إلى ذهن المرأ على ضوء ما سمع من صفات الحجاج السالفة، إلى أنه كان وسيماً، حادَّ البصرِ، فارِعَ الطول، مبسوطَ البنيان، غليظَ الصوت، أو حاداً للصوت. إلا أنَّ الحجاج كان عَكْسَ ذلك تماماً...

فلم يكن الحجاجُ وسيماً، وإنما كان دَقِيْقَ الصوت قصيراً، ويُذكر أن الحجاج قد قال يوماً للمُهَلَّب: (أنا أطول أم أنت؟) فأجابه المهلب: (الأمير أطول وأنا أبسط قامة منه)[2][1]، وكان هذا رداً لَبِقاً من المهلب على الحجاج يشتمل على فصاحة وبيان؛ فالأطول في اللغة يعني الأعلى قامة ويعني أيضاً الأوسع والأغنى والأفضل[3]، فإجابة

---

[1] شذرات الذهب ج1 ص379.
[2] قراءة في سيرة الحجاج بن يوسف الثقفي ص40.
[3] المعجم الوسيط ص571.

المهلب تعني أن الحجاج ذا فَضْلٍ وأن المهلب أطول منه جسداً، كما قال سبحانه: ﴿غافرِ الذَّنْبِ وقابِلِ التوبِ شديدِ العِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾[1] أي ذي السِّعةِ والفضل.

وكان أخفش العين، وهذا قد يعني أنه ضَيِّق العين أو أنه كان ضعيف البصر، والأكيد أنه ضعُف بصر الحجاج في كِبَرِه من كثرة القراءة، حتى صار مقام سخرية الشانئين[2][3].

***وفي الحالتين فإن الذي يسخر من خفش عَيْنَي الحجاج هو خالي الوفاض، فلو أن الحجاج كان قد وُلِد بِضِيْقٍ في العين فهذا خَلْقُ الله، وإن كان قد ضَعُفَ بصره في كِبَرِه فكان هذا من ثقافته وكثرة تطلعه وقراءته.**

وكان الحجاج معلماً[4][5] كأبيه، حيث اشتغل هو وأبوه بتعليم الغلمان بالطائف، وانبرى أعداؤه وشانئوه في الإلصاق به كل ما كان في المهنة من عيب، حتى ولو لم يكن هو نفسه متسماً به. فيقول مالك بن الرَّيْب:-

فَلَوْلا بَنُو مَرَوَان كانَ ابنُ يوسفٍ ... كَمَا كَانَ عبداً مِنْ عَبِيْدِ إيادِ

زَمَـانَ هـو المُـقْري المُقِرُّ بِذُلِّـه ... يُرَاوِحُ غِلْمَانَ القُرَى ويُغَادِي

وقال شاعرٌ آخر:-

أَيَنْسَى كُليبٌ زَمَانَ الهُزَالِ ... وَتَعْلِيمَه سورة الكَوْثَرِ

رَغِيفٌ لَـه فُلْكَةٌ مـا تُرى ... وآخـر كـالقمر الأزهـرِ[6]

***حيث يشير الشاعر هنا إلى أنَّ المعلم وقتها كان يُصنعُ له الخبز بمثابة أجرٍ على تعليمه، فكل بيت يختلف في صنع الخبز عن الآخر، فإن كان بيتاً فقيراً فيصنع خبزاً رديئاً وإن كان غنياً فالخبز يكون ممتازاً.**

وأشار يزيد بن الحكم الثقفي في هجائه للحجاج إلى أنه كان يعمل بالرعي فقال:-

وَرِثْتُ جَدِّي مَجْدَهُ وفَعَالَهُ ... ووَرِثْتَ جَدَّكَ أَعْنُزاً بالطَّائفِ[7]

---

[1] سورة غافر: جزء من الآية 3.
[2] قراءة في سيرة الحجاج بن يوسف الثقفي ص40.
[3] شذرات الذهب ج1 ص378.
[4] المعارف لابن قتيبة ص548.
[5] البداية والنهاية ج9 ص300.
[6] سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون ص170.
[7] قراءة في سيرة الحجاج بن يوسف الثقفي ص44.

وكان المُهَلَّبُ بن أبي صُفْرة يقاتل الأزارقة أيام ولاية الحجاج، فبعث إليه رسولاً بكتابٍ يستبطئه في تأخير مناجزة الأزارقة ويُعجِّزه، فقال المهلب للرسول: قُلْ له: إنَّ الشاهد يرى ما لا يراه الغائب، وقام كعب الأشقريّ الذي كان من جُنْدِ المهلب قائلاً:-

إنَّ ابن يوسفَ غرَّه من غَزْوِكمْ خَفْضَ المقام بجانب الأمصارِ

لو شَـاهَدَ الصَّفَّيْنِ حين تَلاقَيا ضـاقتْ عَلَيْــهِ رَحِيبَة الأقطارِ

ورأى مُعـاوَدَةَ الدِّباغَةِ غنيمـةً أيَّـام كـانَ مُحـالِـفَ الإقتَـارِ

فيشير كعب هنا إلى عَمَلِه بالدباغة. ولما بلغت أبياته الحجاج، بعث إلى المهلب بإرجاع كعب، فبعثه برسالة إلى عبد الملك بن مروان، كتب فيها يستوهبه منه، فاستنطقة أن ينشد عليه شعراً، فأنشده، فأعجب عبد الملك ما سمع، وكتب إلى الحجاج يُقْسِمُ عليه أن يعفو عنه، ولما دخل كَعْبٌ على الحجاج، قال إيهٍ يا كعب!

(ورأى معاودة الدباغة غنيمةً)

فقال: أيها الأمير، والله لوددتُ في بعض ما شاهدتُّه من تلك الحروب وما يوردناه المُهَلَّب من خطرها أن أنجوَ منها، وأكون حجَّاماً أو حائكاً.
فقال له الحجاج: أولى لك! لولا قسمُ أميرِ المؤمنين ما نفعك ما أسمع، فالحقُّ يُصَاحبُك.

وكما أسلفنا لا أظنه عمل بالدباغة، كما أن بعض الرواة يكذبون هذا القول ويرون أن هذا محض أكاذيب للشعراء؛ فكان أباه رجلاً نبيلاً جليل القدر وتربى الحجاج في كنفه[1].

---

[1] سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون ص171.

الحجاج بين الحرب والسياسة

بداية ظهور الحجاج:-

كان الحجاج وأبوه يعملان كمعلمين لأطفال الطائف، وكانت تربط ما بين الثقفيين والأمويين علاقات سياسية، حيث كان الثقفيين وقتها يوالون الأمويين. ومن أهم هؤلاء الثقفيين كان يوسف أبو الحجاج، حيث كانت تربطه بمروان بن الحكم علاقة قوية.

*وما قَوَّى العلاقة بينه وبين مروان بن الحَكَم هو أن يوسف بن الحَكَم كان من نبلاء ثقيف كما أسلفنا، فالنبلاء وأسياد القوم هم الذين يُسمع أصواتهم، فتقول العيون للخليفة: (فُلان بن فُلانٍ قال كذا وكذا وأنه يواليك) فيتنبه الخليفة إليه ويقدمه في حضرته لأنه إذا تولى منصباً، كَسَبَ قبيلتَه...

وفي الغالب كان يوسف بن الحكم وابنه الحجاج معروفين أيام يزيد بن معاوية، وفي رواية أنهم شهدوا موقعة الحرة في عهده.

وفي عهد مروان بن الحكم كان يوسفُ وابنُه الحجاج في الحملة التي قادها مروان بن الحكم بنفسه لاستعادة مصر من ابن الزبير، ونزلوا على الحبيب بن أوس الثقفي مقدم مروان في الفسطاط بمصر، وبقوا فيها شهرين - وهي المدة التي بقى فيها مروان في مصر لتوطيد حكمه - حتى خرج مروان منها إلى الشا.
وقد اشترك الحجاج وأبوه في الحملة التي أرسلها مروان بن الحكم إلى الحجاز للقضاء على الحركة الزبيرية بقيادة حُبَيْش بن دُلْجَة القَيتِيّ.

وذهب حُبَيْش بن دُلْجَة في جيش بقيادته إلى المدينة، وحمل يوسف أبو الحجاج لواء الجيش[1]، إلا أنه هُزِم في الربذة شر هزيمة، فقُتِلَ حُبَيْش بن دلجة قائد الجيش، وكان أفراد جيشه بين قتيل وأسير، ونجا من كان يستطيع النجاة بنفسه ومنهم يوسف وابنه الحجاج إلى الشام. واستفاد الحجاج من هذه الهزيمة في معاركه بعد ذلك، حتى أنه ظل ذاكراً لها حيث يقول: (ما أقبح الهزيمة، لقد كنتُ ورجلٌ آخر - يعني أباه - في جيش

---

[1] تهذيب التهذيب ج1 ص363.

ابن دُلْجَة، فَانْهَزَمْنا فَرَكَضْنَا ثلاثين ميلاً .... وإنه ليخيل إلينا أنَّ رِمَاحَ القومِ في أكتافِنا)[1]

وبالرغم من انسحاب يوسف وابنه الحجاج، غير أنه يبدو أنهما أبليا بلاءً حسناً؛ حيث يُذكر أن مصعب بن الزبير قد رَصَدَ مكافأةً لمن يأتي بهما أو بأحدِهما[2].

ولما مات مروان خلف من بعده عبد الملك بن مروان سنة ٦٥هـ[3]، ومن هنا بدأ ازدهار الحجاج...

وفي دمشق، بذل الحجاج جُهُوداً حثيثةً وأخلَصَ في عملِه، حتى لفت أنظار رَوْحَ بن زِنْباع الذي كان من أمراء الشام، ووزير عبد الملك، وكان عبد الملك يستشيره في الأمور كلِّها [4].
وذات مرة شكا عبد الملك إلى رَوْح أنَّ الجيش لا ينزلون لنزوله ولا يرحلون لرحيله، حيث تخاذل بعض من الجُند حين دعاها عبد الملك للخروج لإخضاع زُفَر بن الحرث الكلابيّ في شبه الجزيرة العربية[5]، فقال رَوْح: عندي رجل توليه ذلك، فولى عبد الملك الحجاج أمر الجيش.

وكان لا يتأخر أحد من الجيش في النزول والرحيل، إلا أعوان رَوْح بن زِنْباع. وفي يوم اجتاز بفسطاط من فساطيط رَوْح بن زِنْباع - أي خيمته[6] - فوقف الحجاج عليهم وكل الناس قد رحلوا والجند - أعوان رَوْح - يأكلون، فقال لهم: ما منعكم أن ترحلوا برحيل أمير المؤمنين؟، فقالوا له: انزل يا ابن اللَّخناء[7] فَكُل معنا. فقال: هيهات! ذهب ما هنالك، ثم أمر بهم فجُلِدوا بالسِّياط وطوّف بهم وأحرق فساطيط رَوْح، فشكى رَوْح ذلك إلى عبدِ الملك، فقال للحجاج: لم صَنَعتَ هذا؟ فقال: لم أفعلْه وإنما فعله أنت، فإن يدي يدُك، وسوطي سوطُك، وما ضرَّكَ إذا أعطيتَ رَوْحاً فسطاتين بدل فسطاته، وبدل غلامه غلامين، ولا تكسرْني في الذي ولّيتَني؟ ففعل ذلك، فأَعجبَ

---

[1] قراءة في سيرة الحجاج بن يوسف الثقفي ص50، 51.
[2] قراءة في سيرة الحجاج بن يوسف الثقفي ص51.
[3] شذرات الذهب ج1 ص289.
[4] البداية والنهاية ج9 ص206.
[5] قراءة في سيرة الحجاج بن يوسف الثقفي ص53.
[6] المعجم الوسيط ص688.
[7] اللَّخناء: هي المرأة غير المختونة، وابن اللَّخناء: يراد به السَّبّ، (المرجع السابق ص821)

عبد الملك فقال: إن شرطيّكم لَجَلْد، ثم أقرَّه على ما هو عليه[1]، وتَقدَّم الحجاج عند عبد الملك من ساعتها[2][3][4].

*وهذا يدل على حزم الحجاج، فما أوصى به رَوْحٌ من البداية إلا لحزمه في عمله.

*وقد يظن البعض أن الحجاج قد عضَّ اليد التي مُدَّت إليه بأن أحرق خيمة رَوْح بن زِنْبَاع، إلا أنني أقول أن هذا منافٍ للحقيقة، فالأمر هنا ليس في رَوْح، وإنما هو متعلق بالجُنْد. فالجيش في كل أوان يستلزم من الضبط والربط ما يجعل الجند خاضعين لقائدهم، وخصوصاً في هذا العصر المليئ بالفِتَن والحروب، وأدل على هذا هو كلام عبد الملك بن مروان نفسه وشكوته لرَوْحٍ أن الجيش لا يأتمرون بأمره، فلا يستقيم أن يكون غلمان رَوْحٍ أول المخالفين. كما أنه لا يستقيم أن يكون جند تابعين لوزير وجند تابعين لآخر، إذاً لهلك الجيش، بل لابد أن يكون الجيش بأكمله على كلمة واحدة.

وها هم أتباع رَوْح، ظنوا أنهم بمنأى عن المحاسبة بأنهم خواص غِلْمان رَوْح، فلم يأتمروا بالأمر وتخلفوا عن رحيل أمير المؤمنين، بل وسَبُّوا قائدهم، فكان لابد من تأديبهم، وتعليمهم بأنه أولاً: لا يجوز التجاوز في حق القائد والاستهانة به، وثانياً: أن هذا الجيشَ جيشٌ واحد، وبهذه الفعلة يرتدعُ من بقيَ من العسكر.

ومن هنا اطمأن عبد الملك بن مروان بأن وجد الرجل الذي يبحث عنه، ويَدُهُ التي كان يبحث عنها، وكان الحجاج يؤكد ولاءه في أوقات كثيرة منها، أنه لما طال القتال والحصار بينه وبين زُفَر بن الحارث، أرسل عبد الملك رجاء بن حيوة وجماعة منهم الحجاج إلى زُفَر بكتابٍ يدعوه إلى الصلح، فأتوه بالكتاب وقد حضرت الصلاة، فقام رجاء فصلى مع زُفَر، وصلى الحجاج وحدَه، فسُئل عن ذلك فقال: لا أصلي مع منافق خارج عن طاعة أمير المؤمنين، فسمع عبد الملك بذلك، فزاد إعجاب عبد الملك به وأرسله إلى بلدة اسمها تَبَالة عاملاً عليها، وكانت هذه أول ولاية يتولاها الحجاج، إلا أنه حين رآها احتقرها لموقعها في غالب الأمر؛ حيث كانت يسترها تل حتى أنه قال: (لا أراني أميراً على موقعٍ تستره أَكَمَة[5]، أهون بها من ولاية) وانصرف وقدم على عبد الملك ملازماً خدمته، حتى صار يُضرب بها المثل فيقول الناس: (أهون من تَبَالة على

---

[1] سرح العيون في شرح شهادة ابن زيدون ص172، 173.
[2] البداية والنهاية ج9 ص300
[3] المعارف لابن قتيبة ص396.
[4] قراءة في سيرة الحجاج بن يوسف الثقفي ص53.
[5] الأَكَمَة: هي التل (المعجم الوسيط ص23).

الحجاج)، وهذا ما يدل على طموح الحجاج[2][1]ومعرفته قدر نفسه، فهو يظن في نفسه أنه يستحق أن يتولى ولايةً بارزة الموقع، وقد صدق ظنُّه.

*ولكنني حائرة بين روايتين، الأولى أن عبد الملك ولاه تَبَالة لما أعجب به، والثانية أن حبيش ابن دلجة - قائد الجيش الذي بعثه مروان بن الحكم وهُزِم شَرَّ هزيمة - هو الذي ولاه إياها[3] ، إلا أنني أرجح الأولى. والثابت أنه وُلِّيَ عليها ولكنها لم تعجبْه لأن بها تلة تحجبها وانصرف عنها.

الحركة الزبيرية:-

كما سبق أن ذكرنا فإن عبد الله بن الزبير كانت تحدثه نفسه بالخروج على معاوية، وكان معاوية يتألف قلبه بالمال، ولكن بدأت الحركة الزبيرية بطريقة رسمية عندما استغل عبد الله بن الزبير موت معاوية، ليقود حركة مسلحة ضد يزيد بن معاوية، ضارباً ببيعة الناس ليزيد بن معاوية عرض الحائط، ودعى لنفسه بالخلافة؛ حيث دعا أعيان أهل تهامة والحجاز فبايعهوه، باستثناء عبد الله بن عباس وعبد الله بن الحنفية، وطرد عمال يزيد من مكة والمدينة. وحاول يزيد بن معاوية التفاوض معه، بأن يعطيه ولاية الحجاز وما شاء وما أحب لأهل بيته من الولاية، شريطة أن يبايعه بالخلافة، لكن ابن الزبير رفض العرض.

حينها أصدر يزيد أمراً إلى مسلم بن عُقْبة بالتوجه إلى مكة للقضاء على حركته، إلا أنَّ هذا الأخير مرض وتُوُفِّيَ في الطريق، وعهد قبل وفاته بقيادة الجيش إلى الحُصَيْن بن نُمَير.
واستأنف الحُصَين الزحف نحو مكة، ووصلها في السادس والعشرين من شهر محرم سنة ٦٤هـ، وحاصرها حصاراً مشدداً بعد أن سيطر على جميع التلال والجبال المحيطة بها، وهاجمها، وتولَّى الدفاع عن البيت الحرام جماعة من الخوارج النجدية.

وبسبب انضمام جميع خصوم الدولة الأموية لعبد الله بن الزبير كالخوارج، والزعيم الشيعي المختار بن أبي عُبيد الثقفيّ، وخضوع المَكِّيين لقائد واحد؛ أدى ذلك إلى شدة المقاومة.

---

[1] قراءة في سيرة الحجاج بن يوسف الثقفي ص54.
[2] المعارف لابن قتيبة ص396.
[3]قراءة في سيرة الحجاج بن يوسف الثقفي ص50، 51.

وفي خِضَمِّ هذه الحرب، مات يزيد بن معاوية، ووصل الخبر للحُصَيْنِ بن عَدِيّ فأوقف القتال، ولجأ إلى المفاوضات مع عبد الله بن الزبير، بأن يبايع الحُصَيْن ابن الزبير بشرط أن ينتقل معه إلى دمشق، إلا أن عبد الله بن الزبير رفض هذا العرض لإدراكه أن أهل الشام مخلصون لبني أمية وأن في الحجاز أنصاره وأعوانه. ثم رفع الحصين الحصار عن مكة ورجع إلى دمشق.

بعد وفاة يزيد كانت هناك بيعتان، إحداهما في مكة والحجاز لعبد الله بن الزبير، والأخرى في الشام لمعاوية بن يزيد.

بعد تولي معاوية بن يزيد الخلافة فكَّر مبايعة رجلٍ آخر والتنحِّي عن الخلافة، لكنه لم يجد الرجل المناسب؛ وهذا بعد أن رأى انقسام أمر المسلمين وعدم قدرته على لم شملهم. لذا عزم على الاقتداء بعمر بن الخطاب وتركه الأمر في ستة يُخْتار الخليفة بينهم، لكنه لم ينجح في ذلك، حينها ترك الأمر شورى بين المسلمين يختاروا لحكمهم من يشاءون، واعتزل في منزله حتى تُوُفِّيَ بعد ثلاثة أشهر من خلافته. وعمت الفوضى أرجاء العالم الإسلامي:-

١- ففي العراق على إثر الضغوط السياسية فرَّ عبيد الله بن زياد بن أبيه والي الدولة الأموية وقتها، وصارت تحكم العراق العصبيات القبلية، فكانت كل قبيلة تحمي مصالحها، وأرسل كل من الكوفة والبصرة إلى عبد الله بن الزبير يبايعونه فبعث إليهم بِعُمَّاله.

٢- وصل لعبد الله بن الزبير وفود من قِنِّسْرِين وحمص ومصر لبيعته ودخل في طاعته أهل فلسطين.

٣- وانقسم أهل الشام بين مؤيدٍ لابن الزبير وبين مدافعٍ عن مكتسبات الخلافة الأموية.

٤- الحزب اليَمَنِيّ بقبيلته بنو كلب، كانت موالية للدولة الأموية، وكانت هذه القبيلة عصب الدولة الأموية وقوتها، وكان على رأسهم حسَّان بن مالك الذي كان يريد الحفاظ على امتيازاته، واستمر موالياً لها.

٥- وصل الضَّحَّاك بن قيس الفهريّ - الذي استاء من محاربة يزيد لأهل المدينة - ورهطه وأتباعه إلى مكانة تكاد تنافس حزب بني كلب، ومنحته الأحداث مكانة متقدمة كأمير لبلاد الشام وخصوصاً بعد موت معاوية بن يزيد. فوجد قيسٌ وأتباعه فرصة كبيرة لهم في مبايعة عبد الله بن الزبير وهذا لتغلبهم على بني كلب، فعيَّنَه ابن الزبير والياً على الشام.

وعلى ضوء هذه الانقسامات والفتن، اجتمع بنو أمية في مؤتمر *الجابية* سنة ٦٤هـ بدمشق لاختيار خليفة، وكان هذا المؤتمر بقيادة حسَّان بن مالك. وكانوا على ثلاثة مرشحين، الأول خالد بن يزيد بن معاوية، والثاني مروان بن الحكم، والثالث عمرو بن سعيد بن العاص. واتفق الرأي في النهاية على مروان بن الحكم، على أن يكون خالد بن يزيد وليّاً للعهد ومن بعده عمرو بن سعيد بن العاص. وكان مروان بن الحكم هو الرجل الأمثل للخلافة وقتها؛ فإن شيخوخته وتجربته تجعله مؤهلاً للحكم في ظروف الفتن هذه.



(1)

---

(1) أطلس تاريخ الدولة أاموية ص111.

واستطاع مروان بن الحكم أن يُثبِتَ أنه أهلٌ للخلافة من البداية:-

١- حيث استطاع السيطرة على الشام وفلسطين بعد القضاء على الضَّحَّاك بن قيس وعامله وعدد كبير من أشراف قيسٍ في الشام. وكان زُفَرَ بن الحارث الكلابي أميرُ قِنِّسْرِين قد انضم هو والنعمان بن بشير والي حِمْص إلى الضَّحَّاك بن قيس في مَرْج راهط استعداداً لحرب مروان بن الحكم، فلما قُتِلَ الضَّحَّاك وهُزِمَ القيسيون، هَرَب زُفَر بعد المعركة إلى قرقيسياء وغلب عليها وتحصَّن بها، ثم عاد فهرب إلى العراق بعد أن أدركته خيل مروان. وهرب النعمان بن بشير إلى حِمْص فأدركه جماعة من أهلِها فقتلوه، وفرّ والي فلسطين، ودانت الشام وفلسطين لمروان بن الحكم.

٢- وكانت الخطوة التالية هي السيطرة على مصر؛ فاستيلاؤه عليها سيُضعِف الحركة الزبيرية، وكان معروفاً أن معظم المصريين مع الأمويين وأن بيعتهم لابن الزبير لم تكن عن ظهر قلب. فالسيطرة عليها لم تكن صعبة؛ حيث جهَّز حملة بقيادته إلى مصر، وبمجرد القضاء على عبد الرحمن بن جَحْدَم - والي مصر من قِبَل ابن الزبير - دانت له. وأقام بها شهرين، رتَّبَ أوضاعها، وعين ابنه عبد العزيز والياً عليها، ثم عاد إلى الشام.

٣- بعد عودة مروان إلى الشام جَهَّز جيشين لمواجهة ابن الزبير، أحدهما بعثه إلى الحجاز بقيادة حُبَيْش بن دُلْجَة، والآخر إلى الجزيرة بقيادة عبيد الله بن زياد بن أبيه لمحاربة زُفَر بن الحارث بقرقيسياء.

وكان الحجاج وأبوه يوسف في الجيش الذي بُعِثَ للحجاز، والذي كان يوسف أبو الحجاج حاملاً للواء الجيش ، إلا أن جيش حبيش هُزِم شر هزيمة، وقُتِلَ حبيش نفسه، لكن الحجاج لم يكن على قيادة الجيش، وتعلم من هذه الهزيمة وظل يذكرها كما أسلفنا...

ومات مروان بن الحكم في سنة ٦٥هـ قبل أنْ يُحَقِّقَ حُلْمَه بإعادة الحجاز والعراق إلى الدولة الأموية، وكان قد عهد بالخلافة إلى ابنيه عبد الملك وعبد العزيز، وهذا بعد أن أقنع الكلبيين أن خالد بن يزيد لن يستطيع التصدي للحركة الزبيرية.

وتولى عبد الملك الخلافة[1]، ومن هنا كان بُزُوغُ نجم الحجاج بن يوسف الثقفي.

---

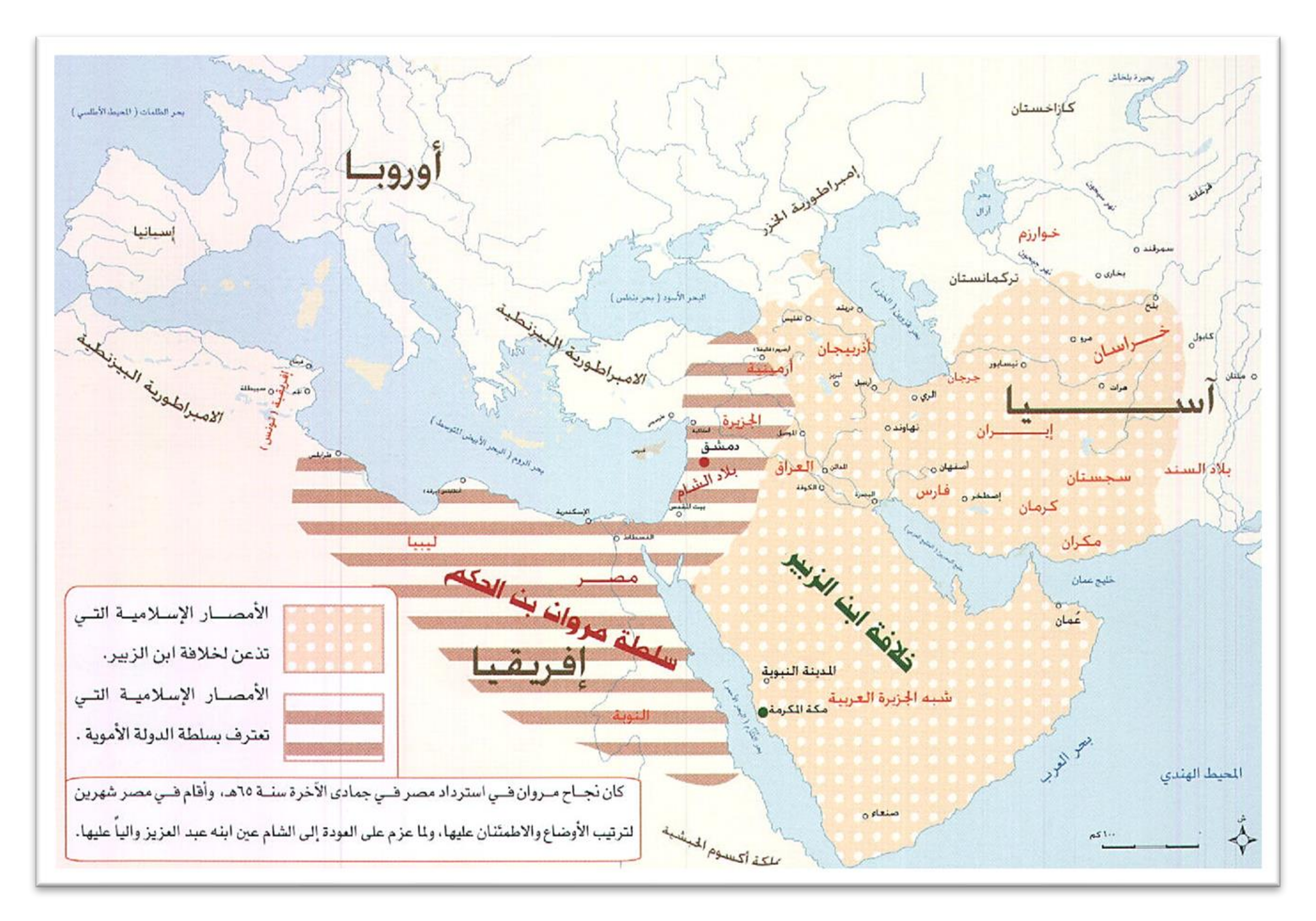
[1] تاريخ الدولة الأموية ص55 : 66



(1)

---

(1) أطلس تاريخ الدولة الأموية ص112.



(1)

وبعدما تخلص عبد الملك من المشاكل بينه وبين مناوئيه الأمويين بالسياسة والأناة، وإنهاء المشكلة معه ومع زُفَر بن الحارث حاكم قرقيسياء، وعقد معاهدة بينه وبين جستنيان الثاني ملك الدولة البيزنطية لضمان هدوء المنطقة وعدم الهجوم عليه من الغرب، وكان هذا مقابل ضريبة مالية.

وهنا، لم يبقَ غير التصدي للحركة الزبيرية. فأدرك عبد الملك بن مروان أن التصدي للحركة الزبيرية لابد أن يبدأ من العراق، ففيها مُصْعَب بن الزبير ذراع عبد الله بن الزبير القوي في العراق.
فخرج عبد الملك على رأس جيش قوي إلى العراق، وخرج مُصْعَب من الكوفة للتصدي له.
وفي حين ذلك كتب عبد الملك إلى زعماء جيش مصعب يستميلهم للانضمام إليه، فردوا عليه بالموافقة.

(1) المرجع السابق ص113.

والتحم الجيشان، فانتصر الجيش الأموي، وقُتِل مُصْعَب، وعلى إثر ذلك دخل عبد الملك الكوفة منتصراً، فأصبح مسيطراً عليها ، وكان هذا في عام ٧٢هـ [1].

الحجاج وابن الزبير:-

ولما فرغ عبد الملك من قتال مُصْعَب بن الزبير، ورجع إلى الشام قال: مَنْ لابن الزبير؟ - يعني عبد الله بن الزبير - ونَدَب الناس لقتاله، فقام الحجاج فقال: يا أمير المؤمنين، أنا له؛ فقال: أَقَعَدْتُم! ثم قال: مَنْ لابن الزبير فقام الحجاج، فقال: يا أمير المؤمنين، ابعثني إليه، فلقد رأيتُ في المنام كأني أخذته فسلختُه وجرَّدتُه من جلدِه. فبعثه إليه[2] .

فتوجه الحجاج بجميع جيشه إلى مكة، وحاصر الحجاج عبدَ الله بن الزبير بمكة حصاراً عسكرياً بأربعين ألف جندي، وحصاراً واقتصادياً، وكان ذلك لمدة طالت إلى سبعة شهور[3]. وأخذ يؤمِّن من خرج إليه من أهل مكة ونادى فيهم بذلك، قال: إنا لم نأتِ لقتال أحد سوى ابن الزبير. وأقام الحجاج للناس بالحج في هذا العام، ولم يتمكن هذا الأخير من الطواف بالبيت، كما لم يتمكن ابن الزبير ومن عنده من الوقوف بعرفة، واعتزل عبد الله بن عمر قتال ابن الزبير والحجاج، وكان يُصلي مع الحجاج بِمِنَى.

وقد خيَّرَ الحجاج ابن الزبير بين ثلاث:-

١- أن يذهب في الأرضِ حيث يشاء.

٢- أن يبعثه إلى الشام مُقَيَّداً بالحديد.

٣- أن يقاتِل حتى يُقْتَل.

وأضحى ابن الزبير في موقف صعب لانفضاض أتباعه من حوله، لتأمين الحجاج لهم، وكان منهم بعض أفراد أسرته وهم، أخوه عُرْوة بن الزبير، وابنا عبد الله بن الزبير حمزة وخبيب[4].

ولما كانت الليلة التي قُتِل في صبيحتها، جمع عبد الله بن الزبير القرشيين فقال لهم: (ما ترون؟)، فقال رجل منهم من بني مخزوم: (والله لقد قاتلنا معك حتى لم نجدْ مقاتلا، ولئن صبرنا معك ما نزيد على أن نموت معك، وإنما هي إحدى خصلتين: إما أن تأذن لنا فنأخذ الأمان لنا ولك، وإما أن تأذن لنا فنخرج)، فقال رجل آخر: (اكتب إلى عبد الملك!)، فقال له عبد الله: (وكيف أكتبُ إليه: من عبد الله أبي بكر أمير المؤمنين، فوالله لن يقبل

---

[1] تاريخ الدولة الأموية ص79، 80.

[2] سرح العيون في شرح شهادة بن زيدون ص173.

[3] قراءة في سيرة الحجاج بن يوسف الثقفي ص64.

[4] المرجع السابق ص67.

ذلك مني أبدا، أم أكتب إليه: لعبد الملك أمير المؤمنين من عبد الله بن الزبير، فوالله لأن تقع الخضراء على الغبراء أحب إِلَيَّ من ذلك). قال أخوه عروة: (يا أمير المؤمنين قد جعل الله لك أسوة... فقال عبد الله: من أسوتي؟ قال: الحسن بن علي بن أبي طالب؛ خلع نفسه وبايع معاوية). فرفع عبد الله رجله، وضرب عُرْوَة حتى ألقاه، ثم قال: (يا عروة قلبي إذن مثل قلبك، والله لو قبلتُ ما تقوقون ما عشتُ إلا قليلاً وقد أخذتُ الدَّنِيَّة، وما ضربةٌ بسيفٍ إلا مثل ضربة بسوط، لا أقبلُ شيئاً مما تقوقون)[1].

فشاور أمَّه في الخيارات التي أعطاها الحجاج له، فأشارت عليه بالثالث.

وقد حاول الحجاج استخدام عُرْوَة في إقناع أخيه عبد الله لقبول الأمان وإنقاذه من موت محقق، فيقول المسعودي: (إن عروة خرج إلى الحجاج ورجع إلى أخيه وقال له: هذا خالد بن عبد الله بن أسيد وعمرو بن عثمان بن عفان يعطيانك أمان عبد الملك على ما أحدثت أنت ومن معك وأن تنزل أي بلاد شئت، لك بذلك عهد الله وميثاقه وغير ذلك من الكلام، فأبى عبد الله قبول ذلك).

وكذلك عرض عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب على ابن الزبير قبيل مقتله أن يخرج إلى الحجاج ليأخذ له أماناً فأبى[2] .

وأخيراً، بعث الحجاج لعبد الملك يستأذنه في قتال ابن الزبير، فأجابه عبد الملك بقوله: افعل ما ترى.
ونَصَبَ المنجانيق على جبل أبي قبيس - الذي هو على الناحية الشرقية من المسجد الحرام - ، وأخذ يضرب ابن الزبير داخل الحرم ضرباً متواصلاً. وقَتَلَ عبد الله بن الزبير، ثم صلبه. وبهذا تم القضاء على الحركة الزبيرية تماماً، ودانت الحجاز لعبد الملك سنة ٧٣هـ [5][4][3].

---

[1] المرجع السابق ص67.

[2] المرجع السابق ص68.

[3] البداية والنهاية ج9 ص121، 122، 300.

[4] تاريخ الدولةالأموية ص80.

[5] أطلس تاريخ الدولة الأموية ص125.



(1)

---

(1) أطلس تاريخ الدولة الأموية ص125.

***وأرى أن هناك الكثير من العوامل التي أثرت بالسلب على عبد الله ابن الزبير في حركته منها:-**

● يرى البعض أن ابن الزبير كان هو الأحق بالخلافة، نظراً لأنه ابن الزبير ابن العوام - رضي الله عنه - الصحابي الجليل، ابن عمة النبي ﷺ وابن أخ أم المؤمنين خديجة بنت خويلد - رضي الله عنها -، كما أن أم عبد الله بن الزبير هي أسماء بنت أبي بكر الملقبة بـ(ذات النطاقين). إلا أن الأمر غير معتمد على النسب فقط، بل على الفراسة والتجربة في الحكم، إلا أن عبد الله بن الزبير - رضي الله عنهما - قد أعجبته نفسه وظن أنه مستحق للخلافة أكثر من غيره، حتى وفي وجود عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - الذي كان يمتلك من الفراسة والحنكة التي تجعله مؤهلاً للخلافة أكثر من غيرِه، ناهيك عن أنه كات أحد الستة الذين اختارهم عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ليُختار منهم الخليفة، إلا أن عمر جعله مُرَجِّحاً لعلمه بمكانة وعقل ابنه، وقال لمعاوية كما ذكرنا سالفاً عندما أتاه لبيعة يزيد ابنه: (فوالله لو أن الأمة اجتمعت على عبد حبشيّ لدخلتُ فيما تدخل فيه الأمة).

● اجتماع خصوم الدولة الأموية معه، ليس حبّاً فيه، وإنما كُرْهاً لبني أمية، وهذا كالخوارج الذين قتل أحدهم علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وهو عبد الله بن ملجم، وقتلوا عثمان بن عفان - رضي الله عنه - من قبله، وحاولوا قتل الحسن بن علي من بعده، وأثبت التاريخ أن لا أمان لهم؛ فلم يكن مدعَّماً بحزب قوي، كالأمويين الذين كانوا مبايعين للخليفة الأموي عن ظهر قلب. وبالرغم من ذلك إلا أنه يُذكَرَ أنَّ عبد الله ابن الزبير قد رفض مساعدة جماعة من الخوارج يبغضون عثمان - رضي الله عنه -، وأخذ يماكرهم حتى تفرَّق الخوارج عنه[1] .

● كانت أسماء بنت أبي بكر أم عبد الله بن الزبير سبباً في مقتله، فأرى أنها قد أَرْدَتْه، حيث أنها أشارت عليه بالاستمرار في القتال بعدما حاصر الحجاج مكة وخيره بين الخيارات الثلاثة السالفة الذكر. فلم تَرَ في ابنها أبداً أنه مخطئاً، بل أعجبها كونه خليفة للمسلمين، وهل ستأتي أمٌّ لن تُعجَبَ بذلك؟!
فالموجود في قلب الحدث قد تفوته التفاصيل، ولكن بعد مرور دُهُور، يستطيع البعيد أن يُلْقِيَ بنظرة واسعة على الأحداث بكاملها، ويدقق في التفاصيل، ولكن غابت هذه التفاصيل على كثير من الناس لنظرتهم إلى نسب عبد الله بن الزبير، إلا أن الرسول قال: (الأئمة من قريش)، فمن اجتمعت فيه الشروط التي تؤهله لتولي الخلافة من قريش، كان هو المُسْتَحِق. العقل والقوة النفسية، والتُّقى ، والنسب، والحزب القوي، فالكل اجتمع فيه عدا الحزب القوي وأنه قد شقَّ عصا المسلمين.

---

[1] قراءة في سيرة الحجاج بن يوسف الثقفي ص65.

● بايع أغلب الناس يزيد في حياة معاوية، فكان في رقبتهم بيعة له حتى ولو لم يبايعه الفئة الأقل، التي كان على رأسهم عبد الله بن الزبير. فبنظرة على زماننا الحالي، إذا دخل رجلٌ في انتخابات نزيهة، وكانت نتيجة الانتخابات في صالحه، هل يجوز للفئة الأقل - التي لم تكن الانتخابات في صالحها - أن تقول أن هذا المنتَخَب ليس رئيساً لها؟ وأن يقوم رجل منهم معروفٌ بصلاحه أن يقول أنا رئيسكم فوافقوا عَلَيّ؟

* وليس أدل على عدم استحقاق ابن الزبير من خُطبة الحجاج بعد مقتل عبد الله بن الزبير التي سنذكرها تالياً.
وقال مجاهد: كنتُ مع ابن عمر فمر على ابن الزبير فوقف وترحَّم عليه ثم التفتَ إلَيّ وقال: أخبرني أبو بكر أن رسول الله ﷺ قال: ﴿من يعمل سوءاً يُجْزَ به﴾[2][1] .

* قد يُصْدَمُ الناس برأيي هذا؛ ولكن كان هذا جَرَّاء تحليل للموقف بأكمله، والروايات والمصادر الجمة التي اطلعتُ عليها التي مكنتني من كتابة هذا الكتاب، ولستُ بالنسيبة من هذا ولا ذاك، وإنما أحلل وأنا على الحياد، والله أعلى وأعلم.

الحجاج والياً على الحجاز:-

لما دخل الحجاج مكة منتصراً قاضياً على الحركة الزبيرية، ولَّاه عبد الملك عليها، أما بالنسبة لطارق بن عمرو الذي ساعده في الحملة على الحجاز فقد ولَّاه على المدينة المنورة، وبعد فترة قام عبد الملك بعزل طارق بن عمرو، وضم المدينة إلى الحجاج بالإضافة إلى مكة، ويبدو أن عبد الملك قد أعجبته سياسة الحجاج في إدارة الأمور فضم إليه اليمن، فأصبح الحجاج والياً على الحجاز بأكمله[3].

في مكة:-

وقد نهج الحجاج منهجاً ليِّناً في التعامل مع أهل مكة بعد أن دخلها، وأول شئ قام بعمله هو كنس المسجد الحرام وتنظيفه من آثار الدماء والحجارة، ثم أخذ ببيعة أهل مكة لعبد الملك بن مروان. ولتخفيف حدة التوتر والحزن اللذان كانا سائدتين بعد مقتل ابن الزبير جمع الناس وخطب فيهم أول خطبة بعد دخوله مكة، حيث يقول صاحب البداية والنهاية: ولما قتل الحجاج ابن الزبير ارتجت مكة بالبكاء، فأمر الناس فجمعوا في المسجد ثم صعد المنبر بعد حمد الله والثناء عليه: (يا أهل مكة! بلغني إكباركم قتل ابن الزبير، ألا

---

[1] البداية والنهاية ج9 ص124، 125.
[2] سورة النساء: جزء من الآية 123.
[3] قراءة في سيرة الحجاج بن يوسف الثقفي ص72، 73.

وإنَّ ابن الزبير كان من خيار هذه الأمة، حتى رغب في الخلافة ونازع فيها أهلها، فنَزَعَ طاعة الله واستكن بِحَرَمِ الله، ولو أن شيئاً مانِعَ العُصاة لمنعت آدم حرمة الجنة، إنَّ الله خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وأباح له كرامته، وأسكنه جنته، فلما أخطأ أخرجه من الجنة بخطيئته، وآدم أكرم على الله من ابن الزبير والجنة أعظم حرمة من الكعبة، اذكروا الله يذكركم[1]).

وبسبب الحصار الذي كان مفروضاً على مكة، كان أهلها تحت ضيق وعِوَز، فقام الحجاج بِوَصْلِهم بالمال وما يحتاجون إليه، ولِضمان طاعتهم واستتباب الأمن أيضاً.

ويبدو أن سياسة اللين هذه قد جرَّأت أهل مكة عليه، فأراد أن يؤكد حزمه، فخطب فيهم متوعداً فقال: (موج ليلٍ التطم، وانجلى صبحُه، يا أهلَ الحِجَاز، كيف أُرِيتُمُونِي؟ ألم أكشف ظلمة الجو وطخية الباطل بنور الحق؟ والله لقد وطأكم الحجاج وطأة مشفقٍ وعطفة رحيم، ووصل قرابة، فإياكم أَنْ تَزِلّوا عن سننٍ أقمناكم عليه، فأَقْطَعَ عنكم ما وصلتُه لكم بالصَّارِمِ البتَّار، وأُقِيْمُ من أَوَدِكم[2] ما يُقِيْمُ المُثَقِّفُ[3] من أَوَدِ القناة بالنار، ثم نزل وهو يقول:

أَخُو الحَرْبِ إن عَضَّتْ به الحَرْبُ عَضَّها وإن شمَّرَتْ عَنْ سَاقِها الحَرْبُ شَمَّرا

وقد اتَّبَعَ الحجاج مع أهل مكة سياسة الترهيب والترغيب حتى استقرتْ للحجاج أمور مكة[4] .

في المدينة:-

أقام الحجاج في مكة عدة شهور حتى عزل عبد الملك طارق بن عمرو عن المدينة المنورة وضمها إلى ولاية الحجاج، وكان ذلك في أوائل عام ٧٤هـ، فقرر التوجه إلى المدينة ليؤكد سلطانه عليها ويضبط أمورها بعد أن عرف عن أهلها عداءهم لبني أمية، وخصوصاً بعد موقعة الحرَّة[5] ، لكن قبل أن يغادر عَيَّنَ نائباً عنه في مكة وهو عبد الرحمن بن نافع بن عبد الحارث الخُزَاعِيّ.

---

[1] البداية والنهاية ج9 ص302.

[2] أَوَدُكم: اعْوِجاجُكم، وأقام أَوَدَه أي أقام اعوجاجه. (المعجم الوسيط ص32.)

[3] المُثَقِّف: هو مُقِيْمُ المُعْوَجْ. (المرجع السابق ص98.)

[4] قراءة في سيرة الحجاج بن يوسف الثقفي ص73، 74.

[5]كانت موقعة الحرة بعد أن حنث أهل المدينة في بيعتهم ليزيد بن معاوية، وولوا على قريش عبد الله بن مطيع وعلى الأنصار عبد الله بن حنظلة بن أبي عامر، وسجنوا من بالمدينة من بني أمية وطردوا عامل يزيد، بعث إليهم يزيد ليعودوا إلى الطاعة من غير قتال فامتنعوا، فأرسل إليهم جيشاً من 12 ألفاً بقيادة مُسْلِم بن عُقْبة المُرِّيّ، وقال له يزيد: ادعهم إلى البيعة ثلاثة أيام دون حرب، ولا تقاتلهم إلا بعد انتهاء المدة. ففعل مُسْلِم، ولكن أهل المدينة امتنعوا عن البيعة؛ فحاصر مسلم

ومَكَثَ الحجاج في المدينة شهراً عكف فيها على تنظيم شئون أهلها، ثم اضْطُرَّ للعودة إلى مكة، لورود كتابٍ له من عبد الملك يأمره فيه بإعادة الكعبة إلى ما كانت عليه قبل ابن الزبير[2][1].

وبعد أن انتهى من بناء الكعبة، عاد إلى المدينة مرة أخرى فأقام فيها ثلاثة أشهر، فقيل أنه اتخذ سياسة الشدة مع أهلها يتعبَّث بأهلها ويتعنتهم[3].

*وهذا غير مستبعدٍ على الإطلاق؛ إذ أنه عُرِفَ عن أهل المدينة كراهيتهم لبني أمية؛ حيث حبسوهم بعد خروجهم على يزيد بن معاوية كما ذُكِر، كما أنه على ضوء ما سبق من وقائع، لا يُعْرَفُ عن الحجاج الشدة بدون سبب قوي يدفعه إلى ذلك، فهو الذي لا يتهاون في الشدة عند الخطأ.

وقد وردت إشارات على استهانة أهل المدينة بالحجاج واستخفافهم به، ورفض البعض منهم الصلاة وراءه، واتهامهم له بتأخير صلاة الجمعة، وكان هذا اتهاماً خطير في هذا الوقت. فاتهام كهذا غير مستبعدٍ على الإطلاق منهم، فهم شانئون كارهون له، ألم يتَّهِم بعض الخوارج الحسن بن علي بالكفر؟!

ويبدو أن الحجاج أراد إخضاع وإذلال الأرسطقراطية الدينية المتعالية في المدينة آن ذاك، ومعاقبة من لم ينصر عثمان بن عفان - رضي الله عنه -، حيث ذكر الطبري في تاريخه رواية أن الحجاج قد أرسل إلى سهل بن سعد فدعاه، فقال: ما منعك أن تنصر أمير المؤمنين عثمان بن عفان! قال: قد فعلتُ. قال: كذبتَ، ثم أمر به فختم في عنقه برصاص[4] . فأراد الحجاج بذلك أن يُردِعَ البقية، وأن يعاقب من لم ينتصر لعثمان - رضي الله عنه -.

وقد تفنن بعض الرواة في تحريف الوقائع، والتجاهل الواضح للأعمال الصالحة التي أنجزها الحجاج في الحجاز والتي من بينها، أن بنى مسجداً في بني سلمة نُسِب إليه.

المدينة من ناحية الحُرَّة، ولما فتحها دعى الناجين إلى بيعة يزيد، فبايع الناس، ومن أبَى قُتِلْ. (أطلس تاريخ الدولة الأموية ص88.)

[1] فتوح البلدان ص63.

[2] قراءة في سيرة الحجاج بن يوسف الثقفي ص75.

[3] تاريخ الطبري ج6 ص195.

[4] المرجع السابق ج6 ص195.

ومن الافتراءات التي ذُكِرت في حق الحجاج أنه حاول اغتيال عبد الله بن عمر بن الخطاب، حيث يقول صاحب تهذيب التهذيب: وقال جماعة: إنه دَسَّ على ابن عمر مَنْ سَمَّه في زُجِّ رُمْح[1].

وأظن أن هذا أبعد ما يكون عن الحقيقة؛ فعبد الله بن عمر دائماً ما كان مؤيِّداً للجماعة كما أسلفنا في بيعة يزيد بن معاوية، كما استنكر خروج عبد الله بن الزبير على بيعة يزيد، ورفض أن يبايعه، واستنكر إجلاء الأمويين من المدينة، وبايع عبد الملك بعد مقتل ابن الزبير، وقَبِلَ الحجاج وساطته في وقف قصف مكة حتى يتسنى للمسلمين أن يكملوا شعائر حجهم[2] ، وقد سبق أن ذكرنا أن عبد الله بن عمر قد اعتزل قتال عبد الله بن الزبير والحجاج وصلى مع الحجاج بمنى، وقد كتب عبد الملك إلى الحجاج أن يأتم بابن عمر في المناسك[3] . فلم يكن عبد الله بن عمر خصماً للحجاج أبداً. وعلى فرض أنه خصم له، فلم يكن من شِيَمِ الحجاج حياكة المؤامرات والغدر بخصومه، وإنما كان يواجههم ويصرح بعداوتهم ويقتص ممن أخطأ عياناً بياناً على مسمع ومرأى من الناس.

***فكل هذه قرائن على أن قتل الحجاج لابن عمر هو مَحْض افتراءٍ وإفكٍ من قِبَلِ خُصومِه وخصوم بني أمية.**

ورُوِيَ أن الحجاج قد صعد يوماً، فخطب، فأطال حتى عبر وقت الصلاة، فقام إليه ابن عمر، فقال: يا حجاج قد أفسدتَّ على الناس صلاتهم، انزِلْ فصلِّ بهم ثم إن شئت فارجع إلى كلامك. فقطع الحجاج خطبته، ثم نزل فصلى، ثم قال: عَلَيَّ يا ابن عمر، فجيئ به فَزَجَرَه وشَتَمَه، وقال: لم يكن من أصحاب رسول الله أجرأ منك عَلَيّ، إن شِئْتُ نَزَعْتُ لسانك. فسكت عنه ابن عمر، حتى سكنَتْ فورته، ثم قال له: يا حجاج، صليتُ خلف رسول الله ﷺ، وخلف أبي بكر وعمر وعثمان وعَلِيّ، وذكر مناقب كل واحد، والآن فأنا أُصلي خلفك ولكن يا حجاج قال رسول الله ﷺ: (سيكون عليكم أمراء السوء)، مثلك ولكن قال: احفظوا عنهم خمسة أشياء وأطيعوهم على ما كان منهم ما قاموا فيكم بهذه الخمس: الجمعة والعيدين والحدود، والجهاد في سبيل الله،

---

[1] تهذيب التهذيب ج1 ص363.

[2] قراءة في سيرة الحجاج بن يوسف الثقفي ص76، 77.

[3] البداية والنهاية ج9 ص105.

والقسمة بالسوية، فإن كنتَ رجلاً فارفعْ من هذه الخمسة واحداً، ثم ادخل المسجد حتى ترى)، فقام الحجاج ومضى[1].

***ويبدو أن شانئي الحجاج قد استغلوا هذه الحادثة وزَعَموا أن الحجاج قد حاك لابن عمر تلك المكيدة السابقة التي مات على إثرها.**

وما دلت عليه هذه الحادثة ما يأتي:-

- **أن الحجاج رجلٌ من بني البشر يصيب ويخطئ كبقية الناس.**
- **انصياع الحجاج لأمر ابن عمر دَلَّ على اعترافه بخطئه، واعترافه بمنزلة ابن عمر - رضي الله عنه - وفقهه.**
- **كان عصر الحجاج في المدينة كما أسلفنا عصر فِتَنٍ وكره لبني أمية واستخفاف بالحجاج كما سبق أن ذكرنا، فأراد الحجاج زجر ابن عمر أَمام الناس كي لا يجترئ أحد عليه، فإذا اجترأ أهل المدينة عليه، عادوا كسابق عصرهم من الخروج على الدولة، فأراد الحجاج أن يزجرهم ويتوعدهم عن طريق خطابه لابن عمر.**
- **في الحادثة اعتراف من ابن عمر أنَّ الحجاج كان مقيماً لحدود الله، وأن ابن عمر لن يقبل التقصير في أحدها ومنها صلاة الجمعة.**
- **في مُضِيّ الحجاج بعد أنْ انتهى ابن عمر من كلامه، دليل على أن الحجاج لم يكن من الطغاة، فعهد الطغاة بالناس إذا ما نَهَرَهُم أحد قتلوه أو عذبوه على مسمعٍ ومرأى من الناس، إلا أن هذا لم يحدث.**

***وللحجاج إنجازات في الحجاز غفل الناس عن ذكرها:-**

- **حيث أعاد بناء الكعبة إلى ما كانت عليه قبل ابن الزبير[2] في زمن الرسول وكساها بالديباج[5][4][3].**
- **بنى مسجد بني سلمة الذي نُسِبَ إليه في المدينة .**

---

[1] الجليس الصالح والأنيس الناصح ص223، 224.

[2] حيث أن ابن الزبير كان قد جعل للكعبة الحِجْر، وجعل لها بابين. (تاريخ الطبري ج6 ص195)

[3] الديباج: هوضَرْبٌ من الثياب سَداه ولُحْمته من الحرير. (المعجم الويط ص268)

[4] تاريخ الطبري ج6 ص195.

[5] قراءة في سيرة الحجاج بن يوسف الثقفي ص78 : 82.

- وقد تأثر الحجاج ببيئته الزراعية بالطائف، فحفر الآبار؛ حيث جدد بئر الياقوتة التي كان قد حفرها أبو بكر الصديق - رضي الله عنه -، فزاد من عمقها وأحكم بناءها.

- كما بنى ثلاثة سدود في شِعْب عمرو بن عبد الله بن خالد على مقربة من جبل مزدلفة بمكة، وأكبر هذه السدود هو سد آثال الذي ظل باقياً إلى الآن، وهو في صدر شِعْب عمرو، وجعله حبْساً على وادي مكة. أما السَّدَّان الآخران فجعلهما على يمين المقبل من الشِّعْب، ويصبَّان بوادي في صدر وادي مِنَى[1] .



(2)

[1] المرجع السابق ص82، 83.

[2] سَد وادي آثال (خرائط جوجل https://2u.pw/ccF4CQ)

الحجاج والياً على العراق:-

لقد اختُلِف في سبب تولي الحجاج أمر العراق، إلا أنني أظن أن كلها صحيحة وكلها أسباب أدت إلى تولي الحجاج أمر العراق:-

- **كان عبد الملك قد سُرَّ باجتهاد الحجاج في الحجاز، ثم كتب الحجاج إلى عبد الملك يقول: إني قد حزت الحجاز بشِمالي وبقيَتْ يميني فارغة - يُعَرِّض بالعراق -[1] .**

- **كما أنَّ بعد موت بِشْر بن مروان - أخو عبد الملك بن مروان والي العراق -، أراد عبد الملك أن يولِّيَ رجلاً علي العراق يثق به، ويقمع الفتنَ هناك[2].**

- **أن الحجاج قد وفَد على عبد الملك ومعه إبراهيم بن طلحة بن عبيد الله التيميّ، وكان من رجال الحجاج عِلماً ونبلاً، وعملاً وزهداً ومهابة، وكان الحجاج مُسَخَّراً له لا يترك من إجلاله شيئاً؛ فلما قدم على عبد الملك أذن له بالدخول، فلمَّا دخل لم يبدأ بشئ إلا أن قال: يا أمير المؤمنين قدمتُ عليك برجل من أهل الحجاز ليس له نظيرٌ في كمال المروءة والديانة وحُسْنِ المذهب والطاعة، مع القرابة ووجوب الحق، فقال: ومن هو؟ قال: إبراهيم بن طلحة التيمي، فلْيفعل أمير المؤمنين معه ما يفعل بأمثال. فقال عبد الملك: ذكَّرْتَني حقاً واجباً، وحقاً قريباً! ثم أذِن له، فلما دخل قرّبه وأدناه، ثم قال له: إن أبا محمد ذكر لنا ما نعرفكَ به، من الفضل وحُسْن المذهب؛ فلا تدعَنَّ حاجة إلا ذَكَرْتَها. فطلب إبراهيم من عبد الملك بأن يخليه، فأشار عبد الملك إلى الحجاج فخرج. وقال: قل، فقال: يا أمير المؤمنين، إنك عهدت إلى الحجاج مع تغطرسه وتعجرفه، وبعده عن الحق، وركونه إلى الباطل؛ فوليته الحرمين وفيهم من أبناء المهاجرين والأنصار من قد عَلِمْت، يسومهم الخسف، ويتوعدهم بالعنف ويطؤهم بطغام[3] أهل الشام ورَعاع لا رويّة لهم في إقامة حق، ولا في إزاحة باطل، ثم تظن أن ذلك ينجيك من عذاب الله! فكيف بك إذا جاثاك محمد ﷺ للخصومة بين يدي الله تعالى! أما والله إنك لن تنجو إلا بحجة تضمن لك النجاة، فاتّقِ لِنفسِك أو دَعْ. وكان عبد الملك متكئاً، فاستوى جالساً، وقال: كَذَبت ومِنْتَ فيما جئتَ به! ولقد ظن بك الحجاج ظناً لم يجدْه فيك، فأنت المائن الحاسد!**

قال إبراهيم: فقمتُ ووالله لا أبصِرُ شيئا، فلما جاوزْتُ السّتر لحقني لاحق، فقال امنع هذا من الخروج. ثم أذِنَ للحجاج، فدخل فلبث مليّاً، وما أشكُّ أنهما في أمري، ثم خرج

---

[1] سرح العيون في شرح شهادة ابن زيدون ص173.
[2] قراءة في سيرة الحجاج بن يوسف الثقفي ص84.
[3] الطغام: أوغاد الناس.

الإذن لي فدخلت،، فلما كُشِف السَّتر إذا أنا بالحجاج خارج، فاعتنقني وقبل ما بين عينيّ، وقال: إذا جزى الله المتواخيين بفضل تواصُلهما، فجزاك الله أفضل الجزاء! أما والله إن بقيتُ لأرفعنَّ ناظريك، ولأُتْبِعَنَّ الرجالَ غبار قدميك.

قال: فقلت في نفسي: إنه ليسخر بي! فلما وصلتُ إلى عبد الملك أدنى مجلسي كما فعل في الأول، ثم قال: يا ابن طلحة، هل أعلمتَ الحجاج بما جرى؛ أو شاركك أحدٌ في نصيحتك؟ فقلتُ: لا والله، ولا أعلم أحداً أظهرَ يداً عندي من الحجاج، ولو كنتُ محابياً أحداً بديني لكان هو؛ ولكني آثرتُ الله ورسوله والمسلمين، ولو آثرتَ الدنيا لكان لك في الحجاج أمل، وقد عزلتُه عن الحرمين لمَّا كرهتَ ولايته عليهما، وأخبرتُه أنك أنت الذي استَنْزَلْتَني له عنهما استصغاراً للولاية، وأعلمتَني أنك أنت الذي سألتَني له في ذلك لعظمهما، ووليتَه العراق، لما هنالك من الأمور التي لا يدحضها إلا أمثاله؛ وإنما قلتُ له ذلك ليؤدي ما يلزمه من ذِمامك، فاخرج معه فإنك غير ذامٍّ لصحبتِهِ مع يدك عنده. فخرجتُ مع الحجاج وأكرمني أضعاف إكرامه، واستدللتُ على ذلك مكارِمَ عبد الملك وتدبيره، واعترافه بالحق، وتلطُّفِه في الأمور[1].

وقد ورد أنه وفَد وفدٌ من أهل الحجاز على عبد الملك منهم عيسى بن طلحة بن عبيد الله، فأثْنَوا على الحجاج وعيسى ساكت، فلما قاموا ثبت عيسى حتى خلا له وجه عبد الملك، فقام وجلس بين يديه، فقال: يا أمير المؤمنين من أنا؟ قال: عيسى بن طلحة بن عبيد الله، قال: فمن أنت؟ قال: عبد الملك بن مروان، قال: أفجهلتَنا أو تغيَّرْتَ بعدنا؟ قال: وما ذاك؟ قال: ولَّيتَ علينا الحجاج يسيرُ فينا بالباطل، ويحملنا على أن نُثنِيَ عليه بغير الحق، والله لئن أعدته علينا لنعصينَّك! فإن قاتلتَنا وغلبتَنا وأسأتَ إلينا قطعتَ أرحامنا، ولئن قوينا عليك لنغصبنك ملكك! ولا تذكرنَّ من هذا شيئا!، فقدم إلى منزله، وأصبح الحجاج غادياً على الوفد في منازلهم يجزيهم الخير. ثم أتى عيسى بن طلحة فقال: جزاك الله على خُلوتك بأمير المؤمنين خيرا، فقد أبدلني بكم خيراً لي منكم، وأبدلكم بي غيري وولاني العراق[2].

وفي سنة ٧٥هـ حج عبد الملك بن مروان، وخطب على مِنْبر رسولِ الله ﷺ، وعزل الحجاج عن الحجاز وولَّاه العراقين[4][3].

*وكل هذه الأسباب كلها ليست بمستبعدة عن الحدوث، إذ أن أبناء الصحابة والتابعين قد كرِهوا أن يتأمَّر عليهم أميراً غير قرشيّ، كما قد عُرِفَ عنهم التمسك بالعصبية

---

[1] سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون ص174 : 176.
[2] قراءة في سيرة الحجاج بن يوسف الثقفي ص84.
[3] شذرات الذهب في أخبار من ذهب ج1 ص313.
[4] تاريخ الإسلام ج5 ص319.

القبلية. وقد أوضحنا سالفاً أن بعضهم قد استخف بالحجاج فعاقبهم على ذلك، ولم نرَ في كلتا الرويتين الأولى أو الثانية أن الحجاج آذاهم أو استصغر منهم على حد زعمهم، وإنما ذكرتا أن الحجاج قد أبذل لهم الخير الوفير، ومدح إبراهيم بن طلحة بن عبيد الله عند عبد الملك بن مروان.
كما أن عبد الملك كان في أمسِّ الحاجة وقتها لرجلٍ كالحجاج يدرأ فِتَنَ العراق، فانتهز الفرصة وولاه عليها.

نظرة سريعة على الوضع في العراق:-

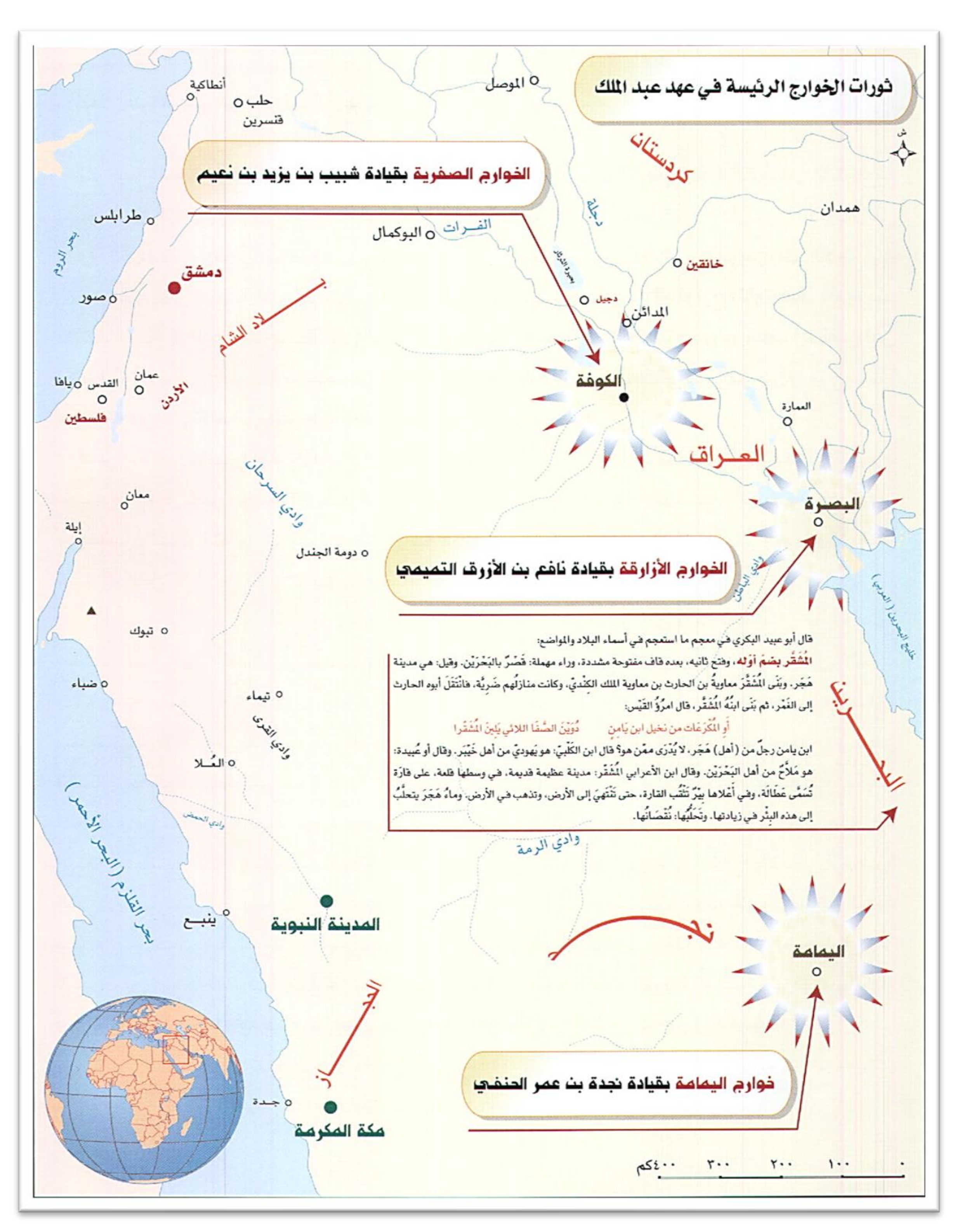
كانت العراق وقتها مليئة بالفتن كما أسلفنا؛ حيث امتلأت بالخوارج الذين انقسموا إلى ثلاثة أقسام:-

- **الخوارج الأزارقة: الذين كان قائدهم نافع بن الأزرق، الذي استغل الأوضاع المتردية التي كانت تمر بها الدولة الأموية، فهاجم البصرة التي كانت وقتها تحت حكم ابن الزبير، وأخذ منهم الخراج، وانتشر عماله في السواد. إلا أن البصريين اتفقوا عليه، فاكتفى بإخراج أنصاره من السجون وذهب إلى الأهواز، وقُتِلَ نافع بن الأزرق في إحدى حملاته على البصرة في عام ٦٥هـ، وخلفه عبيد الله بن الماحوز، إلا أن ابن الزبير وقتها كان قد كلَّف المُهَلَّب بن أبي صُفرة بقتال الخوارج، وقُتِل ابن الماحوز، وتمكن المُهَلَّب من إبعادهم عن الأهواز. وبعد دخول العراق في سيادة عبد الملك أدرك خطورة الأزارقة فكان لابد من التصدي لهم وخصوصاً بعد سيطرتهم على الأهواز.**
- **الخوارج الصفرية: كانوا يهددون الكوفة، وتمكنوا بداية من عام ٧٦هـ من اجتياح العراق من الموصل حتى الكوفة والمدائن وخانقين.**
- **خوارج اليمامة: هاجم خوارج اليمامة بداية من عام ٦٥هـ البحرين ومناطق أخرى على الشريط الساحلي الشرقي للجزيرة العربية، وهدَّدُوا سلطان ابن الزبير الذي لم يستطع التصدي لهم لضعفه. وعندما دخلتْ العراق في حوزة عبد الملك، تصدى لخطرهم، وكانوا تحت قيادة أبي فديك عبد الله بن ثور، فبَعَث عبد الملك عليهم حملة اصطدمت بهم في المشقر في البحرين، وقُتِلَ أبو فُديك واضطر أتباعُه إلى التسليم[1].**

وكان العراق وقتها عبارة عن أحزاب وقبائل متفرقة، وكان منهم من يُكِن العداء للدولة الأموية؛ فكان يلزمها أمير صارم كالحجاج يُثَقِّفُ قَنَاتَها.

---

[1] تاريخ الدولة الأموية ص83 : 86.



(1)

[1]أطلس تاريخ الدولة الأموية ص127.

الحجاج في الكوفة:-

بعد أن أمَّر عبد الملك الحجاج على العراق، خرج من المدينة متوجهاً نحو العراق في نفر ثمانية أو تسعة، فوصل إلى الكوفة في رمضان سنة ٧٥هـ ونزل عند دار الإمامة في مسجد الكوفة، وكان ذلك في يوم جمعة وقد أذَّن المؤذن بالأذان الأول. وكان أهل الكوفة يومئذٍ في حالة حسنة، يخرج الرجل منهم في العشرة والعشرين من مواليه، فأتى آتٍ فقال: هذا الحجاج قد قدم أميراً على العراق، فإذا به الحجاج قد دخل المسجد الجامع بالكوفة، وكان مُعْتمّاً بعمامة قد غطى بها أكثر وجهه، متقلداً سيفَه، متنكباً قوساً، فجمع بهم، فقام الناس نحوه، ثم صَعِدَ المنبر فجلس عليه ثم مكث ساعة لا يتكلم. فقال بعض الناس لبعض: قبَّح الله بني أمية إذ يستعملون مثل هذا على العراق. ثم قال عُمَيْر بن ضابئ البُرجُمي: ألا أحْصِبُه لكم؟[1] وكان بعضهم قد أخذ حصى يريد أن يحصبه بها، فقالوا: أمْهِلْ حتى ننظر.

فلما رأى الحجاج عيون الناسِ إليه حَسَر اللِّثام ونهض فقال:-

أنا ابن جلا[2] وطَلّاعُ الثَّنايا[3]	**متى أضعِ العمامة تعرفوني[4]**

يا أهل الكوفة إني لأحمل الشر بحمله، وأحذوه بنعله وأجزيه بمثله. وإني لأرى أبصاراً طامحةً وأعناقاً متطاولة، ورُؤوساً قد أيْنَعَتْ وحان قِطَافُها، وإني لصاحبها. وكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللّحى تَتَرَقْرَق.

هذا أوان الشدّ[5] فاشتدي، زِيَمْ[6]	**قد لَفَّها الليل بسوّاقِ حُطَم[7]**
لـيس بـراعـي إبـلٍ ولا غــنـمْ	**ولا بجزّارٍ على ظهرٍ وَضَم[9][8]**

---

[1] أحصبه لكم: يعني أرميه بالحجارة.
[2] ابن جلا: البيِّن الأمر.
[3] طَلّاع الثنايا: طلاع الطرق في الجبال، المتغلب على الصعاب.
[4] البيت لسحيم بن وثيل الرياحي.
[5] الشد: الجري.
[6] زِيَمْ: اسم ناقة.
[7] حُطَمْ: الذي يُجهد الناقة.
[8] وَضَمْ: قطعة خشب يقطع الجزّار اللحم عليها.
[9] البيتان لرويشد بن رميض العنبري.

قــد لــفَّهــا الليل بعــصلبيٍّ[1]

أروعَ[2] خــرّاجٍ مِنَ الــدويِّ[3]

مــهاجرٍ[4] لــيس بــأعــرابيِّ

قد شمَّرَتْ عن ساقِها فشدّوا

وجــدَّتِ الحربُ بِكُمْ فجِــدّوا

والــقوسُ فيـــها وَتَــرٌ عُـــرُدُّ[5]

مِــثْلَ ذِراعِ البَــكْرِ[6] أو أَشَــدُّ

لا بُــدَّ مما لــيس مــنــه بُــدُّ

إنِي واللهِ، يا أهل العراق ومَعْدِنِ الشِّقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق، ما يُقَعْقِعُ لي بالشِّنان[7] ، ولا يُغْمَز جانبي كتَغماز التين[8] . ولقد فُرِرْتُ عن ذكاء وفُتِّشْتُ عن تجربة وجَرَيْتُ إلى الغاية القُصْوى. وإن أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - نَثَرَ كِنانَته[9] بين يديه فعَجَمَ عيدانَها[10] فوجدني أَمَرَّها عوداً وأصلبَها مَكْسِراً فرماكم بي لأنكم طالما أوْضَعْتُمْ في الفِتَن واضطجعتم في مراقد الضلال وسَنَنْتُم سُنَنَ الغَيّ.

أما واللهِ، لألْحُوَنَّكم[11] لَحْوَ العصا ولَأقْرِعَنَّكم[12] قَرْعَ المَرْوَة[13] ولَأعْصِبَنَّكم عَصْبَ السَّلَمَة[14] ولأضربنَّكم ضرب غرائب الإبل[15] ، فإنكم لكأهل ﴿قرية كانت آمنةً مطمئنةً

---

[1] العصلبيّ: الشديد.
[2] أروَعَ: ذكيّ الفؤاد.
[3] الدويّ: الصحراء.
[4] مهاجر: يقصد هنا أن المهاجر حَضَريّ
[5] عُرُدّ: شديد.
[6] البَكْر: ولد الناقة.
[7] ما يقعقع لي بالشنان: مثل يقصد به القائل أنه لا يُخوَّف بالأصوات والجعجعات، والشّن: هو الجلد اليابس.
[8] لا أسكت على الضيْم.
[9] الكنانة:جعبة السهام.
[10] عجم العود: عضه ليختبر قوته وصلابته.
[11] لحا: قشر.
[12] قرع: ضرب.
[13] المروة: هي حجرة بيضاء براقةتُقدح منها النار. (المعجم الوسيط ص865).
[14] السلمة: شجر ذو شوك.
[15] يقصد أنه سيسير فيهم سيرة شديدة حازمة.

يأتيها رِزْقُها رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَان فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ الله فَأَذَاقَهَا الله لِبَاسَ الجُوْعِ والخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُوْن﴾[1] .

وإني والله لا أَعِدُ إلا وفَّيْت، ولا أهُمّ إلا أمضيت، ولا أخْلُقُ[2] إلا فَرَيْت[3] . فإياي وهذه الشُّفعاء والزُّرافات وقالاً وقيلاً؛ وما تقول وفيما أنتم وذاك؟ أما والله، لتستقيمُنَّ على طريق الحق أو لأدعَنَّ لكل رجلٍ منكم شُغْلاً في جسده.

وإنَّ أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أُعطياتِكم[4]، وأنْ أوجِّهَكم لمحاربة عدوِّكم مع المُهَلَّبِ بن أبي صُفرة. وأني أقسم بالله لا أجد رجلاً تخلَّف بعد أخْذِ عطائه بثلاثةِ أيام إلا سَفَكْتُ دَمَه وأنهبتُ مالَهُ وهَدَمْتُ منزلَه.

وفي رواية الوليد بن مسلم عن عبيد الله بن يزيد بن أبي مسلم الثقفي عن أبيه: أنهم تناولوا الحصى، وكانوا قد حَصّبوا عاملاً قبل الحجاج فسكت سكتةً أبهتتهم، ثم بدأ كلامه بأن قال: يا أهلَ العراقِ، ويا أهل الشِّقاقِ والنفاق، والله إن كان أمرُكم لَيَهُمُّني قبل أن آتي إليكم، ولقد كنتُ أدعو الله أن يبتليَكم بِي، فأجابَ دعوتي، ألا إني سَرَيْتُ البارحةَ فسقط مني سوطي، فاتَّخَذْتُ هذا مكانه - وأشار إلى سيفه - فوالله لأَجُرَّنَّه فيكم جَرَّ المرأةِ ذَيْلَها، ولأفعلنَّ ولأفعلنَّ.

قال يزيد: فرأيتُ الحصى متساقطاً من أيديهم، وقال: قوموا إلى بيعتكم، فقامت القبائل قبيلة قبيلة تبايع، فيقول: من؟ فتقول: بنو فلان، حتى جاءت قبيلة فقال: من؟ قالوا: النَّخْع، قال: منكم كُمَيْل بن زياد؟ قالوا: نعم، قال: فما فعل؟ قالوا: أيها الأمير شيخ كبير، قال: لا بيعة لكم عندي ولا تقربون حتى تأتوني به. قال: فأتوْه به منعوشاً في سرير حتى وضعوه جانب المنبر، فقال: ألا لم يبقَ ممن دَخَلَ على عثمان الدار غير هذا، فدعى بِنَطْع[5] وضُرِبَتْ عُنُقُه.

وبعد أن فرغ الحجاج من خطبته قال: قم يا غلام فاقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين. فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين إلى من بالكوفة، سلامٌ عليكم. فسكتوا، فقال: اكْفُفْ يا غلام، ثم أقبل عليهم فقال: يسلم عليكم أمير المؤمنين ولا تردون عليه شيئاً، هذا أدب ابن نِهْيَة[6] أما والله لأؤدِّبَنَّكم غير هذا الأدب

---

[1] سورة النحل: جزء من الآية112.

[2] أخلق: أُقَدِّر.

[3] فَرَى: قطع.

[4] أعطيات الجند: أي أرزاقهم ومرتباتهم مقابل عملهم بقتال العدو. (المعجم الوسيط ص609.)

[5] النَّطْع: هو بساط من الجلد كثيرا ما كان يُقْتَلُ فوقه المحكوم عليه بالقتل. (المعجم الوسيط ص930).

[6] زعم أبو العباس أن ابن نهية رجل كان على الشرطة بالبصرة قبل الحجاج.

أو لتَستَقيمُنَّ. اقرأ يا غلام، فقرأ قوله: السلام عليكم، فلم يبقَ في المسجد أحدٌ إلا قال: وعلى أمير المؤمنين السلام[1].

وتأخر عن الموعد الذي كان قد ضربه الحجاج رجل شيخ اسمه عُمَيْر بن ضابئ البُرجمي، ثم جاء بعد ثلاثة أيام يبدي عذراً من ضعفه. فأراد الحجاج في بادئ الأمر أن يغفوَ عنه، ولكن ذكروا له أن هذا الرجل قد دخل على عثمان بن عفان مقتولاً فوطأ بطنه. عندئذٍ أمر الحجاج بقتله وقال له: إن في قتلك صلاح المسلمين، وأمر منادياً فنادى: ألا إن عمير بن ضابئ أتانا بعد ثلاثة - وكان قد سمع النداء - فأمَرْنا بقتلِه. ألا إن الذمة قد برئت برجلٍ رأيناه بعد هذا البعث متخلفاً[3][2] .

فلما فعل ذلك، زيدت الرهبة في نفوس الناس فخرجوا بكثرة حتى أنهم ازدحموا على القنطرة الموصلة ما بين الكوفة ورامهرمز، فسقط بعضهم في النهر، فأمر الحجاج بإنشاء قنطرتين أخريين، فكان الناس يخرجون ويرسلون إلى ذويهم أن زودونا ونحن بمكاننا، حتى قال عبد الله بن الزبير الأسديّ عندما لقي صديقه إبراهيم بن عامر حين سأله عن الخبر:-

تَجَهَّزْ وأسْرِعْ والْحَقِ الْجَيْشَ لا أَرَى	**سِوَى الجَيْشِ إلَّا في المهالك مَذْهَبا**
تَخَـيَّرْ فإما أنْ تَــزورَ ابن ضابِئٍ	**وإمــا أنْ تَــزُورَ المُـهَـلّبَـا[4]**

● ويستدل من هذه الحادثة على أن الحجاج أتى على العراق وكان الناس فيها مستخفين ومتجرئين على حكامهم مهينين لهم حتى أنهم قد حصبوا عاملاً قبل الحجاج، فلما صعد المنبر وسكت، أراد أن يتطلع إلى الوجوه وينظر إلى رد فعلهم، وفي رواية أن أحدهم - وهو محمد بن عُمير - هَمَّ فعلاً بحصبه، ولكن منعه أن تقلد الحجاج قوسه وأنزل نقابه، فدل هذا على أنهم كانوا لا يصلح معهم إلا شدة وزجر الحجاج.

● كما أن الحجاج ما قال شيئاً، وما توعَّدَ أحداً إلا وقد نفذ عليه ما يستحقه.

● بعض الناس قد يظنون أن كلام الحجاج مبالغ فيه، وخصوصاً ما قاله في التخلُّف عن أخذ العطاء بعد ثلاثة أيام، إلا أنَّ ما لا يعلمه الناس أنه هذا يسمى التولي يوم الزحف وهو من السبع الموبقات، فالتولي يوم الزحف هو الهروب من النفور العام لمحاربة العدو،

---

[1] تاريخ الإسلام ج5 ص323.
[2] تاريخ الأدب العربي ج1 ص551 : 553.
[3] تاريخ الإسلام ج5 ص320.
[4] قراءة في سيرة الحجاج بن يوسف الثقفي ص95.

وكان هذا العدو هم الخوارج الأزارقة، الذين كان يحاربهم المُهَلَّب بن أبي صُفرة أيام كان العراق تحت حكم ابن الزبير، فلما دخل تحت حكم عبد الملك بن مروان، عفى هذا الأخير عن المُهَلَّب، وأبقاه على حرب الخوارج الأزارقة، لأنه أعلم الناس بقتالهم ولخبرته في حربهم، وكان المهلب من حينها مخلصاً لعبد الملك بن مروان.

- **أظهر الحجاج في هذه الحادثة مراعاة شديدة للقِصاص من قتلة عثمان بن عفان - رضي الله عنه -، حيث قام بالقِصاص من آخرهم، وهما كميل بن زياد وعُمَيرُ بن ضابئ البُرجميّ، حتى ولو كان أحدهما مريضاً على فراشه والآخر شيخاً كبيراً كما زعم عُمَير بن ضابئ الذي كان في المسجد وقت مجيئ الحجاج وأراد أن يحصبه. فإن في القصاص منهم عبرة لمن لا يعتبر، فهم الذين دخلوا على الخليفة عثمان بن عفان وقتلوه، وفي عَصر الفتن هذا كان لابد من العبرة والقصاص على أعين الناس والشهود؛ رسالة توحي بأنه لن يُتَهاون في مثل هذا أبدا، وأنه من لم يُهدِه عقله، اجْتَثَّه سيف الحجاج.**

الحجاج في البصرة:-

وبعد أن وضع الحجاج الأمور في نصابها في الكوفة، وأخرج أهلها للقتال، خرج إلى البصرة، واستخلف على الكوفة عُرْوَة بن المُغيرة بن شعبة، وكان أهلها قد علموا بما فعله بأهل الكوفة، فخطب فيهم متوعِّداً:-

أيها الناس: مَنْ أعياه داؤه فعندي دواؤه، ومَنْ استَطال أجَلُه فعَلَيَّ أَنْ أُعَجِّلَه، ومن ثَقُلَ عليه رأسُه وضَعْتُ عَنْه ثِقْلَه، ومن استَطالَ ماضي عُمُره قَصَّرتُ عَلَيه باقيَه. إن للشيطانِ طَيْفاً وللسلطانِ سيفاً، فمَن سَقُمَتْ سَريرَتُه صَحَّتْ عُقوبَتُه، ومن وَضَعَه ذنْبُه رَفَعَه صَلْبُه، ومَنْ لَمْ تَسَعْهُ العافية لم تَضِقْ عَنْه الهَلَكَة، ومن سبقتْه بادرةُ فَمِه سَبَق بِدَفْعِهِ بِسَفْكِ دَمِه.
إني أُنْذِر ثم لا أُنْظِر، وأُحَذِّرُ ثم لا أَعْذُرْ، وأتوعَّدُ ثم لا أَعْفو. إنَّما أَفْسَدَكُم تَرْنِيقُ[1] وُلاتِكُم، ومن اسْتَرْخَى لَبَبُه[2] ساءَ أدبُه.
إن الحزمَ والعزمَ سَلَباني سَوْطي وأبْدَلاني به سَيْفي، فقائمُه في يدي، ونِجادُه[3] في عُنُقي، وذُبابُهُ[4] قِلادةٌ لِمَن عصاني. والله لا آمُرُ أحَدَكُم أنْ يخْرجَ مِنْ بابٍ مِنْ أبوابِ المسجد

---

[1] ترنيق: ضعف.
[2] اللبب: حزام صدر الدابة، إشارة إلى ضعف الإدارة والتساهل.
[3] النِجاد: هو حمائلُ السيف.
[4] ذباب السيف: حدُّ السيف.

فَيَخْرُجَ مِنَ الباب الذي يليه إلّا ضرَبْتُ عُنُقَه[1]، ومن كان بالبصرة مِنْ جَيْشِ المُهَلَّب فلْيَلْحَقْ به فمن وجدتُهُ بعدَ ثلاثةٍ ضَرَبْتُ عُنُقَه.

وجلس لإعطاء الناس أعطياتهم، فأتي بشريك بن عمرو اليَشْكُرِيّ، وكان عريفاً، وقيل هذا عاص، فقال: أصلَحَ الله الأمير إن بي فَتْقاً وقد رآه بِشْر بن مروان[2] فَعَذَرَني، وهذا عطائي قد جئتُك به لتردَّه إلى بيتِ المال. فأمر به فَضُرِبَتْ عُنُقُه لاستعفائه، فلم يبقَ بالبصرة مِنْ عَسْكَرِ المُهَلَّبْ إلا لَحِقَ به، فقال كعب:-

لقد ضَرَبَ الحجاج بالمِصْرِ ضَرْبَةٌ تَقَرْقَرُ مِنْها بَطْنُ كُلِّ عَرِيفِ

فأصبحَ حال أهل البصرة كحال أهل الكوفة يتسابقون على أخذ أعطياتهم للذهاب إلى المُهَلَّب.

وآثر الحجاج أن يشد من أَزْرِ المُهَلَّب، فخرج إلى ميدان قريب من ميدان القتال(رُستقباذ)، ومعه وجوه أهل البصرة، ولما نزلها قام خطيباً فحمد الله، وأثنى عليه ثم قال: يا أهلَ البصرة هذا والله مكانكم جمعة بعد جمعة وشهراً بعد شهر حتى يُهْلِكَ الله عز وجل هؤلاء الخوارج المطلِّين عليكم.

وبعث بالقرار للمهلب بن أبي صفرة وهو برامهرمز[3] .

وكان أول من خرج على الحجاج بالعراق عبد الله بن الجارود، وذلك أنه لما ندبهم الحجاج للِّحاق بالمُهَلَّب، ونزل رُسْتَقباذ ومعه وجوه أهل البصرة، وكان بينه وبين المهلب يومان، فقال للناس: إن الزيادة التي زادكم ابن الزبير في أُعطياتكم، زيادة فاسقٍ منافق لستُ أجيزُها، فقام إليه عبد الله بن الجارود العَبْدِيّ فقال: بل هي زيادة أمير المؤمنين عبد الملك، فكَذَّبه وتوعَّدَه، فخرج ابن الجارود على الحجاج، وتابعه خَلْق، فاقتتلوا، فقُتِلَ ابن الجارود في طائفةٍ معه[4] .

***ويبدو أن عبد الله بن الزبير أيام كانت العراق تحت يديه، كان يريد أن يتألف قلوب أهل العراق بأن يكونوا مَعَه ضد الدولة الأموية، فزاد مِنْ أُعْطِياتهم - أي أجورهم مقابل العمل كجنود للدولة -، وهذا ما لم يعلمه الكثير، فأهل العراق كانوا قد اغتروا بأنفسهم ورأوا أنهم لهم فضلٌ على الدولة، فدائماً ما كانوا يملون شروطَهم على الخُلفاء ويطلبون منهم عزل**

---

[1] تاريخ الأدب ج1 ص554.

[2] أخو عبد الملك بن مروان، ووالي العراق قبل الحجاج.

[3] قراءة في سيرة الحجاج بن يوسف الثقفي ص97، 99.

[4] تاريخ الإسلام ج5 ص323، 324.

الأمراء الذين كانوا قد نُصِّبوا عليهم، وتنصيب آخرين بدلاً منهم، وإلا كان البديل أن يخرجوا عليهم وتصير فتنة، وكان الخلفاء يتألَّفونهم بالمال، ومنهم ابن الزبير الذي أراد أن تكون العراق تحت يديه، حتى استفحَلَ أمرُهُم. فلما أتى الحجاج أميراً عليهم، أنقص من الأُعطيات التي كانَ قد خصصها لهم ابن الزبير، فَخَرَجَ عليه ابن الجارود ومعه جماعة لذاك السبب.

وفي نواحي البصرة خرج داوود بن النُّعمان المازنيّ، فوجّهَ الحجاج لحربه الحَكَم بن أيوب الثقفي مُتَوَلِّي البصرة، فظفر به، فقتله[1].

الحجاج والخوارج:-

- **وبعد ثلاث سنوات من الصراع المرير، انتصر المُهَلَّب على *الخوارج الأزارقة* بمساندة الحجاج[2] . وفي سنة ٧٩هـ قُتِلَ رأسُ الخوارج الأزارقة قَطَرِيُّ بن فُجَاءَة التميميّ - الذي كان من قبيلة تميم المعروفة بعدائها لقريش -، عَثَرَ به فرَسُه فَقُتِل، وأُتِيَ للحجاج برأسِه - وكان هذا تقليداً مُتَّبعاً آن ذاك لإرهاب من تُسوِّل له نفسُه بالخروج على الدولة -، وكان الحجاج قد جهَّز إليه جيشٌ بعد جيشٍ وهو يهزمُهم، وممن قاتله سوادة أو سَوَرَة بن أبْجَر الدارِميّ[3] الذي كان من القادة والأبطال الشجعان في الدولة الأموية.**

- **وأما *الخوارج الصفرية* فقد هددوا الكوفة وتمكنوا من اجتياح العراق بداية من عام ٧٦هـ من الموصل حتى الكوفة والمدائن وخانقين كما ذكرنا سالفاً، وكان هذا بقيادة شَبِيب بن يزيد بن نعيم. وانضمَّ شَبِيب لصالح بن مُسَرّح التميميّ - الذي كان بالرغم من صلاحه على حد زعم البعض وفقهه، إلا أنه كان يحطُّ على عثمان وعَلِيّ كدأب الخوارج ويتبرأ منهما، وكان من قبيلة تميم التي تُكِنُّ العداء لقريش كما ذكرنا سابقاً -، فتصمَّدوا مئة وعشرين نفساً ووثبوا على خيل لمحمد بن مروان، فأخذوها وقويت شوكتهم.**
ثم هجم شبيب على الكوفة وقتل بها أبا سُلَيم مولى عَنْبَسة بن أبي سفيان والد لَيْث بن أبي سُلَيم، وقتل بها عُدَيّ بن عمرو، وأزهر بن عبد الله العامريّ، ثم خرج عن الكوفة فوجه الحجاج لحربه زائدة بن قدامة الثقفي، في جيش كبير، فالتقوا بأسفل الفرات، فهزمهم شبيب وقتل زائدة، فوجه الحجاج لحربه عبد الرحمن بن محمد الأشعث، فلم يقاتله.

---

[1] المرجع السابق ج5 ص325.
[2] أطلس تاريخ الدولة الأموية ص126.
[3] شذرات الذهب في أخبار من ذهب ج1 ص324.

ولما حار الحجاج في حربه مع شبيب، وجَّهَ إليه عثمان بن قَطَن الحارِثِيّ، فالتقوا في آخر العام، فقُتِل عثمان وانهزم جَمْعُه، وقُتِل ستمئة ممن معه، ومائة وعشرون من قبيلة كِنْدة، وقُتِل من الأعيان: عَقِيل بن شَدَّاد السَّلُولِيّ، وخالد بن نَهِيْك الكِنْدِيّ، والأبرد بن ربيعة الكِنْدِيّ. واسْتَفْحَلَ أمرُ شبيبٍ وأعيى الحجاج.
وفي عام ٧٧هـ، سار شَبيب فنَزَل المدائن، فندب الحجاج لقتاله أهلُ الكوفة كلهم، وبعث عبد الملك لحربه من الشام، سُفيانَ بن الأبرد، وحبيباً الحَكَمِي في ستة آلاف.
ولما قدم عتَّاب بن ورقاء مستعفياً من عِشْرَةِ المُهَلَّب، جعله عاملاً على الكوفة وأمره أن يجمع جيشاً من خمسين ألفٍ.
وعَرَضَ شَبيب جندَه بالمدائن، فكانوا ألف رجل، ثم سار بالجيش فأخذوا يتخلفون عنه حتى وصل عدد جيشه إلى ستمائة. والناظر هنا يرى الفرق في عدد الجيش لصالح عَتَّاب بن ورقاء، غير أنه تفرق عن عَتَّاب عامة جيشه الذي كان قد جمعهم من الكوفة، وتتجلى قوتُه في الحقِ رغم ذلك في أنه قاتل ساعة ثم قُتِل.

ثم قال شبيب لأصحابه: ارفعوا عنهم السيف، ودعا الناس إلى طاعته وبيعته، فبايعوه، وهربوا ليلاً. وكان هذا قبل أن يَقْدِمَ جَيْشَ الشام الذي كان قد أعده عبد الملك الذي كان على قيادته سُفيانَ بن الأبرد، وحبيباً الحَكَمِي في ستة آلاف.
وفي الوقت الذي كان قد تَوَجَّه شَبيباً نحو الكوفة، كان قد أتى على الحجاج جيش الشام، فَشَدُّوا من أَزْرِه، فاستغنى بهم عن جيش الكوفة، وقال: يا أهل الكوفة لا أعز الله من أراد بكم العِزّة، الحقوا بالحيرة فانزلوا مع اليهود والنصارى، ولا تقاتلوا مَعَنا. وهذا مما زادهم في الحجاج بُغْضاً.

* ويبدو أن الحجاج قد تَعَلَّمَ أن جنود الكوفة ليس لهم أمان، حين تفرَّقوا عن عَتَّاب بن ورقاء، فلَمْ يُرِدْ أن يُخَذِّلَ جيشه بهم، واستعاض عنهم بجيش الشام الذي يُكِنُّ بالولاء للدولة وللخليفة عبد الملك.

وبعث الحجاج الحارث بن معاوية الثقفي في ألف فارس للاستطلاع، فباغتهم شَبيبٌ فقتله وانهزم من معه.
ثم جاء شبيب ونازلَ الكوفة، فخرج إليه أبو الورد مولى الحجاج في عدة غِلْمانٍ فقاتل حتى قُتِل.
ثم خرج طُهمان مولى الحجاج في طائفة، فقتله شَبيب.
وخرج الحجاج بنفسه على بَغْل في جيش الشام، فلما التقى الجمعان، نزل وقَعَد على كرسيّ ونادى في الناس: (يا أهل الشام، أنتم أهل السَّمْعِ والطاعة والصبر واليقين، لا يَغْلِبَنَّ

باطل هؤلاء حقكم، غُضُّوا الأبصار، واجْثُوا على الركب، واشْرِعوا إليهم بالأسِنَّة).
وكان شبيب في ستمئة رجل، فجعل مائتين معه كُرْدُوساً، ومائتين مع سُوَيد بن سُليم، ومائتين مع المُحَلَّل بن وائل، وأمر الحجاج بتقديم كرسيه وصاح في الناس، فَثَبَتوا، وطال القتال، فلما رأى شَبيب صَبْرَهم، نادى: يا سُوَيْد، احْمِلْ على أهل هذه السِّكّة لعلك تزيل أهلها عنها، فتأتي الحجاج من ورائه ونحن من أمامه، فحمل سُوَيْد على أهل السِّكَّة، فَرُمِيَ مِنْ فَوْقِ البيوت، فَرُدّ.
وحَمَلَ شَبيب على الحجاج، فوَثَبَ أصحاب الحجاج طعناً وضَرْباً، فنَزَل شبيب وقومه، وصَعَدَ الحجاج المسجد - الذي كان قد بناه شبيب بطرف السَّبْخة -، في نحو عشرين رجلاً وقال: إذا دَنَوْا فارشقوهم بالنَّبْل[1] . فاقتَتَلوا عامَّة النهار حتى أقرَّ كل فريق للآخر.

وقال خالد بن عتَّاب بن ورقاء للحجاج: ائذَنْ لي في قِتالِهم، فإنِّي مَوْتُور وممَّن لا يُتَّهَمُ في نَصيحة. فأذِن له. فخرج خالد بن عتَّاب في عِصابة فالتفَّ من ورائهم، فقَتَل مُصاداً أخا شبيب، وغَزالة امرأة شَبيب، وأضْرَمَ النيران في عَسْكَرِه، فَوَثَبَ شَبِيْبٌ وأصحابُه على خيولِهِم، فقال الحجاج: (احمِلوا عليهم فقد أُرْعَبُوا)، فَشَدّوا عليهم فهزموهم، وتأخر شَبيبٌ في حامية قومه، وذكر من كان معه أنه كان يَنْعَس ويَخْفِقُ برأسه وخَلْفَه جنود الحجاج. فبَعَثَ الحجاج إلى جنوده أن دعوهم في حرق النار، فتركوه ورجعوا.

ومرَّ أصحاب شبيب على عاملٍ للحجاج على بلد السواد فقتلوه، ثم أتوا بالمال على ظهر دابة، فَسبَّهم ورمى بالمال في الفرات، ثم سار بهم إلى الأهواز وبها محمد بن موسى بن طلحة بن عُبيد الله، فخرج لقتاله، وسأله محمد المبارزة، فبارزه شبيبٌ وقتله.

ومضى إلى كَرْمان، فأقام شهرين، ثم رجع إلى الأهواز، فندب له الحجاج مُقَدَّمِيّ جيش الشام، سفيان بن الأبرد الكلبيّ، وحبيب بن عبد الله الحَكَمِيّ، فالتقَوْا على جِسر دُجَيْل، فاقتتلوا حتى حجز بينهم الليل، ثم ذهب شَبيب، فلما صار على جسر دُجَيل قَطَع الجسر، فوقع شَبيب وغَرِق[2] ، *وكانت هذه نهاية الخوارج الصفرية* .

الحجاج وأسرى الخوارِج:-

أُتِيَ الحجاج بأسرى من الخوارج، فأمر بضرب أعناقِهم، حتى قدم فيهم شابٌ فقال: والله يا حجاج لإنْ كنا أسأنا في الذَّنْب فما أحسَنْتَ في العفو. فقال: أُفٍّ لهذه الجِيَف. ما كان فيهم مَنْ يقولُ مِثْلَ هذا؟ وأمْسَكَ عن القتل.

---

[1] النَّبْل: أي السِّهام.
[2] تاريخ الإسلام ج5 ص327 : 333.

وأُتِيَ بأسرى آخرون فأمَرَ بِقَتْلِهم، فقال له رجل منهم: لا جزاك الله يا حجاج عن السُنّة خيراً؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿فإذا لَقِيْتُمُ الذين كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقاب حتى إذَا أثْخَنْتُمُوهُم فَشُدُّوا الوَثاق فإمَّا مَنًّا بَعْدُ وإمَّا فِدَاءً﴾[1] فهذا قول الله في كتابه. وقد قال شاعرُكم فيما وصف به قومَه من مكارم الأخلاق:-

وما نَقْتُلُ الأسْرَى ولكن نَفُكّهُمْ إذا أثْقَلَ الأعناقَ حَمْلُ القَلائدِ[2]

فقال الحجاج: وَيْحَكُم! أعجزتم أن تُخْبِروني بمثل ما أخبرني هذا المنافق؟ وأمْسَكَ عمن بقي[3] .

وفي يومٍ أُتِيَ للحجاج بحرورية[4] ، فقال لأصحابه: ما تقولون في هذه؟ قالوا: اقتلها. أصلح الله الأمير، ونَكِّلْ بها غيرَها! فتبسَّمَت الحرورية. فقال لها: لِمَ تَبَسَّمْتِ؟ فقالت: لقد كان وزراء أخيك فرعون خيرٌ من وزرائِك يا حجاج: استشارهم في قتل موسى فقالوا: ﴿أَرْجِهْ وأَخَاه﴾[5] وهؤلاء يأمرونك بتعجيل قتلي، فَضَحِكَ الحجاج وأمر بإطلاقِها[6].

***ويبدو أنَّ الحجاج كان يريد مبرِّراً للكَفِّ عن إعدام أسرَى الخوارج، بالرَّغْمِ من أنَّهم قد ارتَكَبوا جرائم في حق الدولة تستدعي قَتْلَهم، إلا أنه كان قد اكتفى بالقَتْلِ ورأى أنَّ من أُعْدِمَ يَكْفي لِرَدْعِ مَنْ تُسَوِّلُ له نَفْسُه بالخروج على الدولة.**

ذكاؤه في اختيار موظفيه ومحاسبته لهم:-

ولبث الحجاج أميراً على العراق عشرين سنة، كان يجتهد فيها في اختيار معاونيه وموظفيه وعماله على النواحي والأقاليم، فكان يتخير عمالاً فيهم نفس صفاته، وما تشملها من كفاءة وأمانة في الآداء.

وفي يوم استشار أهل الكوفة فقال: دلوني على رجلٍ أوليه الشرطة، فقيل له: أي الرجال تريد، قال: أريد رجلاً دائم العُبوس طويل الجلوس، سمين الأمانة، أعجف الخيانة[7] ، لا

---

[1] سورة محمد: جزء من الآية: 4.

[2] القلائد: هو ما يُجْعَل في العُنُقِ من حُلِيٍّ ونحوه، والمقصود هنا: الأصفاد أو الحبال الموضوعة في أعناق الأسرى (المعجم الوسيط ص754.)

[3] العقد الفريد ج2 ص47.

[4] الحرورية: هي طائفة من الخوارج تُنْسَب إلى حروراء بقرب الكوفة، لأنهم أقاموا أول اجتماعهم وتحكيمهم فيهاا حين خالفوا عَلِيّاً، وكان عندهم تشدد في الدين. (معجم المعاني الجامع: https://2u.pw/nKfLfK).

[5] سورة الأعراف: جزء من الآية: 111.

[6] العقد الفريد ج2 ص48.

[7] أعجف الخيانة: الأعجف هو الأهزل، والمقصود بأعجف الخيانة: أنه لا يخون. (المعجم الوسيط ص585، 586.)

يحنق[1] في الحق على حرة، يهون عليه سؤال الأشراف في الشفاعة، فقالوا: عليك بعبد الرحمن بن عُبيد التميمي، فأرسل إليه ليستعمله، فقال: لستُ أقبلها إلا أن تكفيني ولدك وعمالك وحاشيتك، فقال الحجاج: نادِ مَن طَلَبَ إليه منهم حاجة فقد برئت الذمة منه.

***ومما سبق يبدو ذكاؤه وحكمته في اختياره لقائد الشرطة:-**

- **أنه اختار رجلاً دائم العبوس لكي لا يطمع فيه أحد ولا يتجرأ أحد عليه.**
- **وطويل الجلوس لكي يتفرغ ويتأنى لفهم القضايا، فيكون حكمه فيها عن تفرغ ودراسة عميقة للموقف، فلا ينشغل بغيرها.**
- **وسمين للأمانة وأعجف للخيانة حتى يؤتمن على الأرواح والأموال وأن لا يخرج عن طاعته.**
- **ولا يحقد أو يحنق في الحق بأن يفعل الحق ولو على الوالدين والأقربين.**
- **ولا ينزل عن الحق مقابل شفاعة الأشراف في العقاب أو غيره فلا يطمع فيه أحد، فلا يستغل نفوذه ولا يحابي أحداً على الآخر لعصبيته، فيكون الكل سواء، ويتحقق العدل[2].**

وأقبل المستكفي[3] يوماً على محمد بن محمد بن يحيى بن شيرزاد الكاتب، فقال: أتعرف خبر الحجاج مع أهل الشام؟ قال: لا يا أمير المؤمنين، قال: ذكروا أن الحجاج بن يوسف كان قد اجتبى قوماً من أهل العراق وَجَدَ عندهم من الكفاية ما لم يجد عند مختصيه من الشاميين؛ فشقَّ ذلك على الشاميين وتكلموا فيه، فبلغ إليه كلامهم؛ فركب في جماعة من الفريقين، وأوغل بهم في الصحراء؛ فلاح لهم من بُعْد قِطَار إبِل؛ فدعا برجلٍ من أهل الشام، فقال له: امضِ فاعرف ما هذه الأشباح، واستقصِ أمرها، فلم يلبثْ أن جاء وأخبره أنها إبِل، فقال: أمُحَمَّلَةٌ هي؟ أم غيرُ محمَّلة؟ قال: لا أدري، ولكني أعود وأتعرف ذلك، وقد كان الحجاج أتْبَعَه برجل من أهل العراق، وأمره بمثل ما كان أمَرَ الشامي، فلما رجع العراقي أقبل عليه الحجاج وأهل الشام يسمعون فقال: ما هي؟ قال: إبِل، قال: وكم عددها؟ قال: ثلاثون، قال: وما تحمل؟ قال: زيتاً، قال: ومن أين صدرت؟ قال: مِن موضع

---

[1] لا يحنق: لا يحقد. (المرجع السابق ص203.)

[2] قراءة في سيرة الحجاج بن يوسف الثقفي ص96، 97.

[3] الخليفة المستكفي بالله، أبو القاسم عبد الله بن المكتفي عَليّ بن المعتَضِد، الخليفة العبَّاسي. (سير أعلام النبلاء ج 15 ص111.

كذا، قال: وأين قصات؟ قال: موضع كذا، قال: ومن ربُّها[1]؟ قال: فلان، فالتفت إلى أهل الشام فقال:-

أُلامُ على عمرٍو ولو ماتَ أو نَأى لَقَلَّ الذي يُغْنِي غَنَاءَكَ يا عمرُو

فقال شيرزاد: فقد قال يا أمير المؤمنين بعض أهل الأدب في هذا المعنى:-

شَرُّ الرَّسولَيْنِ من يَحْتاجُ مُرْسِلُهُ مِنْهُ إلى العَوْدِ والأمرانِ سِيانِ

كَذاكَ ما قالَ أهلُ العِلْمِ في مَثَلٍ طريقُ كُلِّ أخي جَهلٍ طريقانِ[2]

***فلم يكن الحجاج محابياً أحداً على أحدٍ إلا بالإتقان للعمل وحُسْنِ ما رأى منه من سرعة للبديهة والفطنة.**

وكان يقول: إني أيقظت رأيي، وأنمتُ هواي، فأدنيتُ السيد المطاع في قومه، ووليتُ الحربَ الحازمَ في أمرِه، وقلّدْتُ الخراج الموفِّرَ لأمانتِه.

ولما بعثَ أدهم بن محرز عاملاً من قِبَلِهِ على سجستان، كتب إلى أهلها يقول: أما بعد فإني قد بعثتُ عليكم أدهم بن محرز وهو ما علمته طويل الجلوس دائم العبوس سمين الأمانة أعجف للخيانة، فاسمعوا له وأطيعوا.

وكان الحجاج دائماً ما يحث موظفيه وعماله على الحق والعدل، وليس أدل على ذلك من الخطبة التي ألقاها مطرف بن المغيرة بن شعبة، حين عينه الحجاج على المدائن، حيث قال: أيها الناس إن الأمير الحجاج أصلَحَه الله قد ولاني عليكم، وأمرني بالحكم بالحق والعدل في السيرة. فإن عمِلتُ بما أمرني أَسْعَدَ الناس وإنْ لَمْ أَفْعَلْ فنَفْسي أَوْبَقْتُ وحَظَّ نفسي ضَيَّعْتُ، إلا إني جالسٌ لكم العَصْرَين، فارفعوا إليَّ حوائجَكُم، وأشيروا عَلَيَّ بما يصلحكم ويصلح بلادَكم، فإني لن ألومَكم خيراً ما استطعت.

وسار على هذه السياسة أيضاً عامل الحجاج في السِّنْد محمد بن القاسم الثقفيّ، حتى قيل أنَّ أهلها بَكَوْا عليه حين عُزِل عنهم.

وكان الحجاج دائم الاستعانة بأشد الناس ولاءً وإخلاصاً للدولة الأموية، ومن بينهم بني ثقيف ومن أفراد عائلته لِمَا عرف عن ثقيف ولاءها للدولة الأموية، ومن خارج ثقيف أيضاً؛ حيث أنه كان يهمه الولاء للدولة لاتساعها، والكفاءة والأمانة في العمل.

---

[1] ربها: أي صاحبها.

[2] مروج الذهب ومعادن الجوهر ج3 ص371، 372.

وكان الحجاج يراقبُ عماله في تصرفاتهم ويسألهم، ويشتد في محاسبتهم إذا رأى منهم تقصيراً أو تمرداً أو تلاعباً في الأموال، كما كان ينتهز موسم الحج في سؤال أهل الأمصار عن عماله، كما كان يسأل من يفد إليه عنهم، حيث وَرَد أنه كان يسأل عن يزيد بن المُهَلَّب والي خُرَسان، فلَمْ يَجِدْ عليه شيئاً، إلا أنه بقي في صدره شئ، حتى قَدِمَ الخيار بن أبي سبرة بن ذُؤيب على الحجاج - الذي كان من فرسان المُهَلَّب وكان مع يزيد -، فقال له الحجاج: أخبِرْني عن يزيد، قال: حَسَنُ الطاعة، لَيِّنُ السيرة، قال: كَذَبْت، أصدِقْني عَنْه، قال: الله أجَلُّ وأعظَم، قد أسْرَجَ ولم يُلْجِم، قال: صَدَقْتَ، واستعمل الخيارَ على عُمان بعد ذلك[1]. وكانت هذه الحادثة سبباً في عزل يزيد بن المُهَلَّب عن خُرَسان. وقد أثبتت الأحداث فطنة الحجاج وصدق مخاوفه؛ حيث قام يزيد بن المُهَلَّب بالخروج على الدولة الأموية في العراق في عهد يزيد بن عبد الملك في عام ١٠٢هـ. كما وَجَّه الحجاج تهمة التقصير في دفع الأموال إلى يزيد بن المُهَلَّب وأخويه المُفضل وعبد الملك، وحبسهم بعد أن عجزوا عن دفع المبالغ المطلوبة منهم، وكان قدرها ستة ملايين درهم.

وقام الحجاج بعزل حمزة بن المغيرة عامله على همذان، عندما عَلِمَ بمساعدته السِّرِّيَّة لأخيه مُطرف عند خروجه على الدولة.

ويُرْوَى أنَّ الحجاج وَلَّى علياّ بن أصمع على البارجاه – وهو موقع قريب من البصرة -، وحذَّره من الخيانة قائلاً: والله لئن بلَغَتني عنك خيانة لأقْطَعَنَّ ما أبقى عَلِيٍّ من يَدِك. وكان عليٌّ استعمله فظهرت منه خيانة، فقطع أصابعَ يده، وعاش حتى أدرك الحجاج.

وحَبَس الحجاج مالكا بن أسماء بن خارجة بن الفزاريّ عامله على أصفهان لأنه لم يَفِ بالأموال المطلوبة منه.

ولما أبلى القائد اليمنيّ المشهور سفيان بن الأبرد الكلبيّ في قتال الخوارج، عيَّنَه الحجاج عاملاً على طبرستان، إلا أنه لم يلبث أن حَبَسَه لتقصيرِه في سداد الأموال المستحقة عليه.

وكان الحجاج يُحْصي أموال عماله ويشُكُّ في مصدرها إذا تجاوزت الحدَّ المعقول، ومن ذلك إحصائه لِتَرِكَةِ أخيه محمد بن يوسف عامله على اليمن بعد مماته، وإصراره أن ينال كل من أساء عقوبة رادعة له ولغيره؛ فحين علم عروة بن الزبير عامل الحجاج على اليمن أن الحجاج كان عازماً على مطالبته بالأموال التي بيده وعزله من عمله، لجأ إلى الخليفة عبد الملك بن مروان، فأنزل عقوبة صارمة عليه.

---

[1] تاريخ الطبري ج6 ص394.

كما اتهم موسى بن نُصير باقتطاع جزء كبير من أموال العراق، حين كان مسئولاً عن خراج العراق في زمن بِشر بن مروان أمير العراق قبل الحجاج[1].

وما كان الحجاج يرشح شخصاً ليكون والياً على مدينة أو بَلَدٍ للخليفة عبد الملك، إلا كان ترشيحُه نافذَ المفعول.

الحجاج وابن الأشعث:-

من هو ابن الأشعث؟!

كان عبد الرحمن بن الأشعث زعيم قبيلة كِنْدة، وأحد زعماء الكوفة.

وبَعد القضاء على الخوارج، اهتم الحجاج بالفتوحات الخارجية إلى ما وراء سَجِسْتان. وكان رتبيل ملك كابُلْ قد هزم جَيْشاً إسلامياً في عام ٧٩هـ بقيادة عبيد الله بن أبي بَكْرَة، فآلمت هذه الكارثة عبد الملك بن مروان، فأرسل إلى الحجاج بإرسال جيش لتأديبه.

فأعدَّ الحجاج جيشاً ضَخماً بالغ في تجهيزه، وجعل على قيادته ابنُ الأشعث - الذي لم تكن علاقته به جيدة -، وقد عيَّنه والياً على سَجِسْتان، وأمَرَه بإخضاعِ رَتْبيل.

وتقدم عبد الرحمن بهذا الجيش في عام ٨٠هـ باتجاه سَجِسْتان، وهاجم معاقل رَتْبيل، مما أدى إلى انسحاب هذا الأخير من أمام عبد الرحمن، إلا أنه بسبب طبيعة البلاد الجبلية الوعرة، لم يتمكن عبد الرحمن بن الأشعث من إخضاع رتبيل. وكان ابن الأشعث بين خيارين، إما أن يزحف وراء فلول الترك، أو أن يكتفي بانتصاراته الجزئية حتى يتمكن الجنود من التأقلم على الطبيعة الجبلية للمنطقة، فاستقرَّ على الخيار الأخير، فقرر تجميد العمليات العسكرية لمدة سنة والتراجع إلى بُسْت - إحدى مدن سَجِسْتان -، وكتب إلى الحجاج بهذا القرار[2].

إلا أن الحجاج توالى في الإرسال لابن الأشعث رسالة بعد رسالة، حتى صاروا ثلاثاً؛ حيث رفض في الأولى قرار ابن الأشعث؛ وكان هذا بناء على خلفيات سياسية غير عالم بطبُغرافية سَجِسْتان على أرض الواقع، وأحزنه أن يميل قائد الجيش المجهز تجهيزاً بالغاً إلى الراحة.

ثم رأى أن ابن الأشعث رجل لا يُسْتَهانُ به، وقد يُحْدِثَ قَلْقَلَة في وَضعِ الجُنْد، فأرسل رسالة ثانية، يُقِرُّ فيها ما فعله ابن الأشعَث من إعطاء الجُنْدِ فترة للراحة.

---

[1] قراءة في سيرة الحجاج بن يوسف الثقفي ص103 : 105.

[2] تاريخ الدولة الأموية ص86، 87.

ثم ما لَبِثَ الحجاج أن أدركَ أنَّ راحة الجُنْد وهدوئهم بالإضافة إلى كون ابن الأشْعَث على إمْرَتِهم قد يؤدي إلى ما لا يُحْمَدُ عُقْباه؛ فجدد الحجاج لابن الأشعث الأمر بالزحف وراء القوات التركية، وهدده بالعزل إذا خالف أمره، وتأييداً لهذا التهديد، بعَثَ إليه بإسحاق بن محمد الأشعث - أخا ابن الأشعث - في جُنْدٍ ثالث.



(1)

---

(1) أطلس تاريخ الدولة الأموية ص130.

إلا أن ابن الأشعث شعر بالإهانة جراء مخاطبة الحجاج له بهذا الأسلوب، فقال: (يُكْتُبُ إِلَيَّ ابنَ أَبِي رُغال[1] ويَرْمِيني بالجُبن؟ هو والله الجبان وأبوه مِنْ قَبْلِه). وأثار أتباعه خاطباً فيهم: (أيها الناس إني والله لكم ناصح ولصلاحِكم مُحِب، وفيما يَعُمُّكم نفعه ناظر. وقد كان من رأيي فيما بينكم وبين عدوِّكم رأي استشرتُ فيه ذوي أحلامكم وأُولِي التجربة في الحرب منكم، فرفضوه لكم رأياً، ورأوه لكم في العاجل والآجل صلاحاً، وقد كتبتُ إلى أميرِكم الحجاج، فجاءني منه كتاباً يُعجزني ويضعفني، ويأمرني بتعجيلِ الوغول بكم في أرض العدو، وهي الأرض التي هلَك فيها إخوانُكم بالأمس، وإنما أنا رجلٌ منكم، أمضي إذا مضيتم وآبى إذا أبيتم). فثار إليه الناس وقالوا: (بل نأبى على عدوِّ الله ولا نسمع له ولا نطيع، فإنَّ ابنَ أَبِي رُغال لا يريد بنا خيراً).

فصَوَّرَ لهم ابن الأشعَث أن هذه مؤامرة من الحجاج للحول دون عودتهم للعراق، ووضع الحجاج في قالب من يريد إهلاكهك، وما قال ابن الأشعَث هذا إلا وهو يعلم علم اليقين كراهية الجُنْدِ، للقتال في هذه البلاد الوعرة، وما تكاد الحرب أن تنتهي إلا وأعقبتها حرب في مكان آخر، غير بُغْضِهم للحجاج الذي كان لا يَقْبَلُ أصحاب الأهواء، والويل لمن خالف. وقرر ابن الأشعث اللعب على الوتر الديني لإثارة الجنود الذين كانوا معه؛ فاتَّهَمَ الحجاج بالضلال والإلحاد، فبدى الوضع كأنه على أساس ديني، إلا أن الأمر كان عكس ذلك تماماً:-

- **حيث كَبُرَ على ابن الأشعَث باعتباره سيِّد قومه مخاطبة الحجاج له بهذه الطريقة؛ فأخذته العزَّة بالإثم.**

- **كان ابن الأشعث من قبيلة كِنْدَة التي هي أصلها من اليمن؛ فكان مؤيِّداً لثورة اليمنيين من أهل الكوفة، الذين كانوا منتظرين لقحطانيٍّ يُعيد فيهم المُلك القديم.**

- **اشترك الموالي في خروج ابن الأشعَث على الدولة، والذين كانت لهم مصلحة خاصة في معاداة حكومة الشام، حيث كان الموالي قبل الدولة الأموية يحالفون العرب ويدخلون في ولائهم، ويتعصب كل منهم للقبيلة التي ينتمي إليها، وكان الخلفاء يثقون فيهم ويعهدون إليهم كثيراً من مناصب الدولة، ولما قلَّت الفتوحات، توَجَّهوا إلى الشراء والهبة في الأراضي في غيبة من الدولة، وأصبحوا لا يدفعون خراجاً، وإنما يدفعون زكاة لأنهم مسلمون، والزكاة أقل من الخراج، وأصبحَتْ الأراضي في نظرهم عَشْرية وليست خراجية، مما أثر على ميزانية الدولة، حتى جاء الحجاج وفرض الخراج على تلك الأراضي التي مُلّكت لهم بطريق الشراء والهبة والتي أسلم أصحابها، وفرض الجزية على المسلمين الجدد، لإقبال خلق كثير من الفرس للدخول في الإسلام، فكان هناك شك في أنهم دخلوا الإسلام تهرباً من الجزية، وألزمهم بالعودة إلى قراهم لكي لا تزدحم المدن، كما أن إقامتهم في المدن كان الغرض منه**

---

[1] أبو رغال: كان دليل الأحباش في الكعبة، الذي مات قبل أن يَصِلَ إلى الطيق كما أسلفنا، فعدوه العرب خائناً، ومن ذلك أصبح يُلقّب كلّ خائنٍ بأبي رُغال. وهنا استغلَّ عبد الرحمن بن الأشعَث اللغط في نسب الحجاج للتسفيه منه.

بالنسبة لهم تسجيلهم أنفسهم في ديوان العطاء - أي أنهم يُجَنِّدُون أنفسهم - ليأخذوا مُرَتَّبَاتهم على أساس أنهم جنود، في الوقت الذي كان فيه اكتفاء في الجند، ولا حاجة للدولة لهم كجنود، وإنما كانت الدولة تحتاج إليهم للعودة إلى أراضيهم في القرى لزراعتها ليدروا الدخل على الدولة؛ فبدا ذلك في نظر الموالي عَسْفاً بحقوقهم، مما أدى إلى تطلعهم لنشوب ثورة.

فقرروا مباية ابن الأشْعَث الذي خرج على الحجاج[1]، وخَلَعَ عبد الملك بن مروان، ولقَّب نفسه بناصر المؤمنين، وعَقَدَ صُلْحاً مع رَتبيل على أنه إذا نجح في حركته هذه، فلا خراج على رتبيل أبداً، وإن هُزِمَ لجأ هو ومن معه إليه، فمَنَعَهم.

وكتب ابن الأشعث للمهلب والي خُراسان يسأله خلع الحجاج، فقال المهلب: (ما كُنْتُ لِأغْدِرَ بَعْدَ سبعين سنة)، ثم قال: (ما أعْجَبُ لهذا يدعوني إلى الغَدْر مَنْ بَعْضُ وَلَدِي أكْبَرُ مِنْه!!)، وقال لرسول ابن الأشعث: (قل له اتَّقِ الله في دماءِ المسلمين!).

ثم كتب المهلب للحجاج: (إن أهل العراق قد قبلوا إليك وهم مثل السيل المنحدر ليس شئ يردُّه حتى ينتهي إلى قراره، وإن لأهل العراق شَرَهاً في أوَّلِ مخرجهم، وبهم صبابة إلى نسائهم وأبنائهم، فليس شئ يرُدُّهم حتى يسقطوا إلى أهلهم، فلا تستقبلهم، وخَلِّ لهم الطريقَ حتى يأتوا البصرة فيواقعوا نساءهم، ويتنسموا أولادهم، فترقُّ قلوبُهُم، ويخلُدوا إلى المقام في منازلهم، فيتفرقوا عن ابن الأشعث، ثم واقِعْ مَنْ حاربك منهم، فإن الله عز وجل ناصرك عليهم)، فلما قرأ الحجاج كتابه لم يعمل بمقتضاه.

وكتب لابن الأشعث وهو لا يزال بسجستان: (إنك يا ابن محمد قد وضعتَ رِجْلَك في غَرْزٍ طويل الغيِّ على أمَّةِ محمد ﷺ، فاللهَ اللهَ يا ابن أخي، انظرْ إلى نفسِكَ فلا تُهْلِكْها، واتَّقِ اللهَ عز وجل في دماء المسلمي، فلا تَسْفِكْها، والبيعةَ فلا تَنْكُثْها، والجماعةَ فلا تفارقْها، فإنْ قُلْتَ: أخاف الناس فالله أحقُّ أن تخافَه، والسَّلام). ولم يكترث ابن الأشعث لخطاب الحجاج، وبدأ بالزحف ومن معه إلى العراق[2].

***ويبدو لنا من رسالة الحجاج، أنها رسالة فيها من اللِّين بِطَعْمِ الوعيد؛ فهو في رسالته ينصح عبد الرحمن بن الأشعث بأن لا يَشُقَّ عصا المسلمين، وأن لا يَفتِنَ الناس، وإلا كانَتْ عواقب أفعاله وخيمة.**

وأصبَحَ الحجاج يترصَّد زَحْفَ ابن الأشعث بالرغم ما يعانيه من قلة التجهيزات؛ فطلب مدداً سريعاً من دمشق، ثم تلقى أولى هزائمه في تستر في إقليم خوزتان في شهر ذي الحجة عام ٨١هـ، فتراجع إلى الزاوية بالقرب من البصرة.

---

(1) شذرات الذهب ج1 ص326.

(2) قراءة في سيرة الحجاج بن يوسف الثقفي ص238 : 243، 281 : 285.

ودخل ابن الأشعث البصرة وبايعه أهلها، إلا أن الحجاج انتصر في الزاوية في شهر محرَّم عام ٨٢هـ، مما اضطُّر ابن الأشعث إلى مغادرة البصرة، وعاد الحجاج إليها[1].

ولما انتصر الحجاج في الزاوية، خطب في الناس ثم قال: (إنكم خالفتُم وعَصَيْتُم وأَخْلَلْتُم بأنفسِكم فعفوتُ عنكم وقد قَدِرْتُ، وأنا أُقْسِمُ لكم بالله لإن عُدْتُم لِمِثْلِ فِعْلِكُم، لأَقْتُلَنَّ مُقاتِلتَكم ولأضرِبَنَّكم بأموالِكم).

وجدد ابن الأشعث انتصاراته بأن دخل الكوفة، في حين لما استقرت للحجاج الأمور في البصرة وللى عليها ابن أيّوب الثقفي، ثم خرج قاصداً الكوفة لإخراج ابن الأشعث منها، فخرج ابن الأشعث من الكوفة واعترضت الحجاج جيوش ابن الأشعث فسايرته حتى استقرت جيوش الحجاج في دير قرّة تنتظر المدد من الشام، في حين استقرت جيوش ابن الأشعث في دير الجماجم وأقام ابن الأشعث معسكره هناك.

واستمرت موقعة دير الجماجم في حربٍ من مائة يوم، قُتِلَ فيها خَلْقٌ كثير؛ فأراد رؤساء قريش أن يضعوا حداً لهذه الدماء، فذهبوا إلى الخليفة عبد الملك فقالوا له: (إنْ كانَ يَرْضَى أهل العراق بعزل الحجاج عنهم، نزعناه عنهم فإنَّ خَلْعَه أيْسَر من حربهم، وتُحْقَنُ بذلك الدماء). وحقناً لدماء المسلمين وافقهم عبد الملك، وأرسل رسولين، هما عبد الله بن عبد الملك - ابنه -، ومحمد بن مروان - أخوه -، ومعهم جُنْدٌ كثيف، وقال لهما: (اعرضا على أهل العراق عزل الحجاج وإجراء الأعطيات عليهم مثل أهل الشام، مع ضمان سلامة عبد الرحمن بن الأشعث في أي بلدٍ شاء كان والياً عليه ما دام حياً وعبد الملك بن مروان خليفة، فإن استجاب أهل العراق إلى ذلك عزلتما الحجاج وولي العراق محمد بن مروان، وإن لم يُجِبْ أهل العراق ولم يسمعوا لهذا، فالحجاج أمير الجماعة، وأنتما تسمعان له وتطيعان).

فشقَّ هذا الأمر على الحجاج؛ فرأى أنه إذا ما استجابوا، تطلعوا إلى من فوق الحجاج وهو عبد الملك بن مروان، فكتب كتاباً إلى عبد الملك يقول: (والله لإن أعطَيْتَ أهلَ العراق نزعي، لا يلبثوا إلا قليلاً حتى يخالفوك ويسيروا إليك، ولا يزيدهم ذلك إلا جرأة عليك. ألم تَرَ وتسْمَعْ بِوُثوبِ أهلِ العراق مع الأَشْتَرْ على ابن عفان؟ فلما سألهم ما يريدون قالوا: نزع سعيد بن العاص. فلم تَتِمْ لهم السَّنَة حتى ساروا إليه فقتلوه؟ إنَّ الحديدَ بالحديدِ يُفْلِح. خار الله لك فيما ارتأيتَ! والسلام). فلما وصل الكتاب إلى عبد الملك لم يَرجِعْ عما ارتأى.

ولما وصل عبد الله بن عبد الملك ومحمد بن مروان، اجتمعا بالحجاج، ونادى عبد الله في الناس: يا أهل العراق أنا عبد الله ابن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، وهو يعرض عليكم كذا وكذا وذكر ما كتب له أبوه، وقال محمد: وأنا رسول أمير المؤمنين إليكم بذلك.

---

[1] تاريخ الدولة الأموية ص88.

واجتمع ابن الأشعث مع جميع القوم، وتكلم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: (أما بعد فقد أُعطيتم أمراً انتهازُكم إياه فرصة، ولا آمَنُ أن يكون على ذي الرأي غداً حسرة، وأنتم اليوم على النصف، فإن كانوا اعتدوا عليكم بالزاوية، فأنتم تعتدون عليهم بيوم تستر، فاقبلوا ما عرضوا عليكم وأنتم أعِزَّاء أقوياء والقوم لكم هائبون وأنتم لهم منتقصون، فوالله لازلتم عليهم جُراء، ولا زلتم عندهم أعِزَّاء أبداً ما بقيتم إن أنتم قبلتم).

***ويُحتَمَل أن يكون ابن الأشعث قد صدق النية فيما قال، بأنَّه أحسَّ أن عرض عبد الملك مُغرٍ وأنّه هو الأفضل من مواصلة القتال، أو أنه أراد أن يُثْبِتَ لأتْباعِه أنَّه زاهدٌ في الحُكْم. إلا أن الثابِتَ أنَّ أتباعه قد رفضوا العرض؛ فقالوا: (إن الله قد أهلكهم، فأصبحوا في الضَّنْكِ والمجاعة والقلة والذّلة، ونحن ذَوُو العدد الكثير والسعر الرخيص والمادة القريبة. لا، والله لا نقبَل!) واستقرُّوا على خلعِ عبد الملك ظانين أنهم في موقف قوة أكثر من الجيش الأمويّ.**

ولما بلغ عبد الله بن عبد الملك ومحمد بن مروان ما أجمع عليه أتباع ابن الأشعث، قالا للحجاج: (شأنُك بعسكرك وجُنْدِك، فاعمل بِرأيِك، فإنما أُمِرْنا أنْ نَسْمَعَ لك ونُطيع)، فقال الحجاج لهما: (قد قلتُ لكما أنه لا يراد بهذا الأمر غيركما - يقصد آلَ مروان -، وإنما أنا أقاتل عن سلطانكما وإنما سلطاني سلطانكما).

وخرج للقتال الذي استمر طويلاً، يهزم فريق مرة والآخر مرة، وكان الحجاج في تلك الأثناء يلقي أبياتاً لسويد بن أبي كاهل اليشكريّ:-

كيفَ يرجونَ سقاطي بعدما	**جَلَّلَ الرأسُ مَشيْبٌ وصَلَعْ**
رُبَّ مَنْ أَنْضَجْتُ غَيْظاً قَلْبُهُ	**قَدْ تَمَنَّى لِيَ موتاً لَمْ يُـطَـعْ**
يَــرانِي كـالــشَّجى في حَـلْـقِهِ	**عَــسِـراً مَخْرَجُهُ ما يُنْتَزَعْ**
مُــزْبِدٌ يَــخْطُرُ ما لم يَـرَنِي	**فإذا أسْمَعْتُهُ صَوتِي انْقَمَعْ**

ويُبَرِّئُ نفسَه من هذه الدماء، وأنه مظلوم ليس بظالم مُنْشِداً:-

وكُنْتُ إذا قَوْمٌ غَزَوْنِي غَـزَوْتُـهُمْ	**فَهَلْ أنا في ذا يا لِهمذان ظالِمُ؟!**
مَتَى تَجْمَعِ القَلْبَ الذَّكِيَّ وصَرِماً	**وأَنْفاً حَمِيّاً تَجْتَنِبْكَ المَـظالِمُ[1]**

---

[1] قراءة في سيرة الحجاج بن يوسف الثقفي ص252 : 255.

وفي الرابع عشر من جمادى الآخر في سنة ٨٢هـ، التقى الجيشان في معركة أخيرة ضارية هُزِمَ فيها ابن الأشْعَث الذي فَرَّ هارباً إلى سَجِسْتان، إلا أنَّ الحجاج لَمْ يَتْرُكْهُ وشأنُه، وأجبرَ رَتْبِيل على تَسْليمِه. ولمّا عَلِمَ ابن الأشعث بذلك انْتَحَر بأنْ ألقى بِنَفْسِه مِن فوق القصر، فانتهت حركته بموته[1].



قال أبو عبيد البكري في معجم ما استعجم في أسماء البلاد والمواضع:

دَيرَ الجَمَاجِم جمع جُمْجُمَة. سُمِّي بوقعة إياد على أعاجم كسرى، بشاطىء الفُرَاتِ الغربي؛ فقتلت جيشه، فلم يُفلت منهم إلاَّ الشريد، وجمعوا جماجمهم، فجعلوها كالكَوم، فسمي ذلك المكان دير الجماجم؛ قاله ابن شبّة؛ زاد الهمْداني أن رئيس إياد يومئذ بلالٌ الرَّمّاحُ الإياديّ.

وقال أبو الفرج: هو دير بظاهر الكوفة، على طريق البَرّ الذي سلك إلى البصرة؛ وفيه كانت الوقعة بين الحجّاج بن يوسف، وبين عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث.

وذلك أن ابن الأشعث لما رأى كثرة من معه من الجيش بالبصرة، وقد نازله الحجّاج بها، خرج يريد الكوفة، ورأى أن أهلها أطوع له من أهل البصرة، لبغضهم الحجّاج، ولأنه يجد بها من عشائره ومواليه أنصاراً كثيرة. فسار إليها، وسايره الحجاج، فنزل ابن الأشعث دير الجماجم، ونزل الحجاج بإزائه بدير قُرّة، ووقعت الحرب بينهما، ثم انهزم ابن الأشعث، فعاد إلى البصرة.

وقد ذكرت الشعراء دير الجماجم كثيراً؛ قال جرير يهجو الفرزدق:

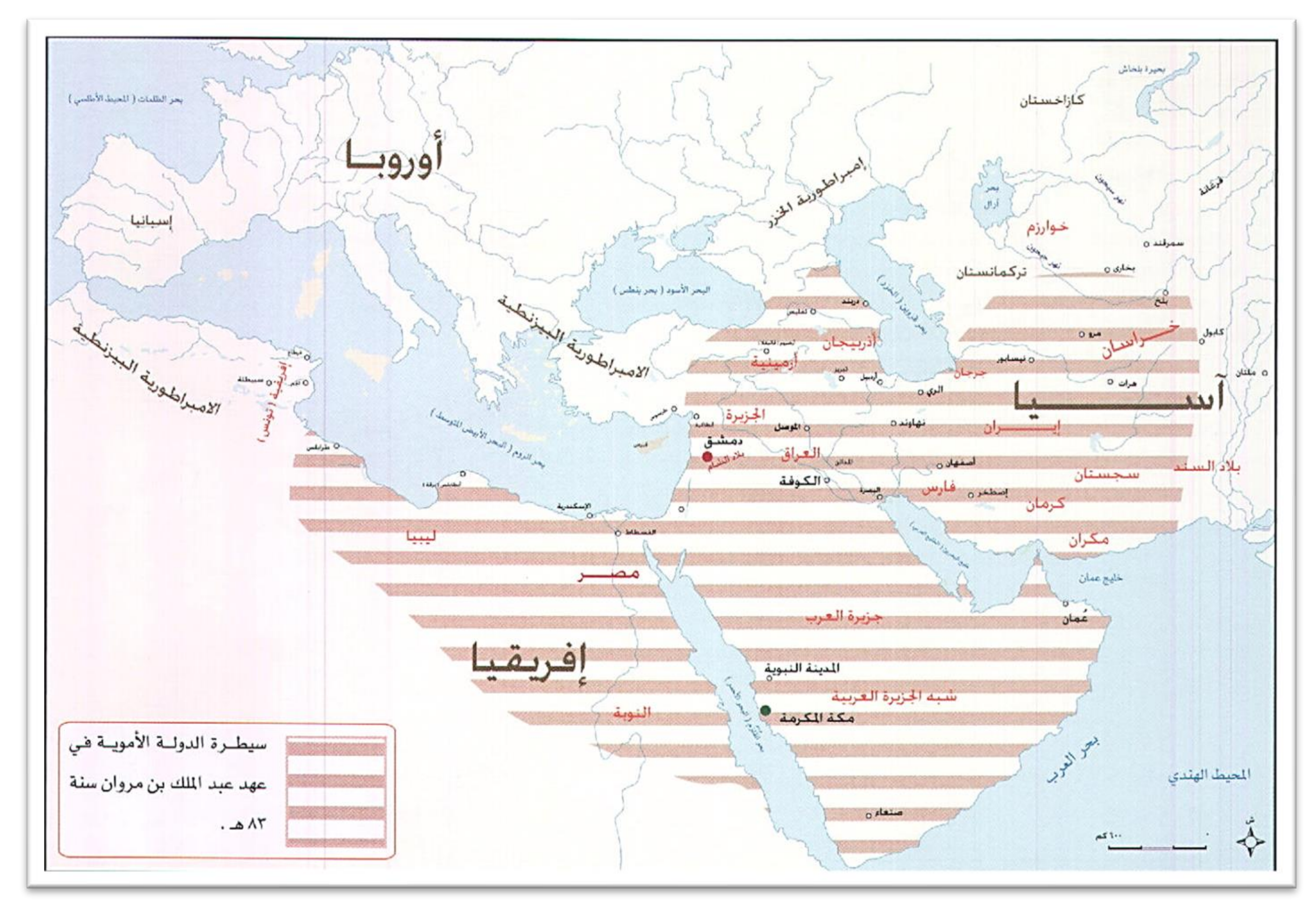
ولم تَشْهَد الجوْنين والشّعَب ذا الصفا
وشَدّاتِ قيسٍ يومَ دير الجماجِمِ

(2)

---

[1] تاريخ الدولة الأموية ص89.

[2] أطلس تاريخ الدولة الأموية ص132.



(1)

ثم خَطَبَ الحجاج في الناس بعد دير الجماجم فقال: (يا أهلَ العراق، إنَّ الشيطان قد اسْتَبْطَنَكم[2] فخالط اللحم والدم والعَصَبَ والمَسامِع والأطراف، ثم أَفْضَى إلى الأصماخ[3] والأمخاخ والأشجاع، ثم ارتفع فعشَّش، ثم باض وفرَّخ ، ثم دَبَّ ودَرَج[4]، فحشاكم نفاقاً وشِقاقاً ، وأشعركم خلافاً ، اتخذتموه دليلاً تتبعونَه، وقائداً تطيعونَه ، ومؤتمناً تشاورونَه وتستأمرونَه ، فكيف تنفعكم تجربةٌ أو ينفعكم بيان؟ ألستم أصحابي بالأهواز حيث مَنَيْتُم المَكْرَ وأجْمَعْتُم على الغدر، واتفقتُم على الكفر، وظننتم أن الله يخذِلُ دينَه وخلافتَه؟ وأنا والله أرميكم بطرفي وأنتم تتسللون لواذاً، وتنهزمون سراعاً. ويوم الزاوية وما يوم الزاوية، مما كان من فشلِكُم وتنازعِكُم وتجادُلِكُم وبراءةِ اللهِ منكم ونكوسِ قلوبكم، إذ وَلَّيْتُم كالإبل الشَّاردةِ عن أوطانها النَّوازع، لا يَسأل المرءُ عن أخيه ، ولا يَلوي الشيخُ على بنيه، حين

---

(1) المرجع السابق ص133.

(2) استبطنكم: دخلكم. (المعجم الوسيط ص62).

(3) الأصماخ: الأسماع. (المصدر السابق ص 522).

(4) دَرَج: أخذ طريقه تدرُّجاً. (المصدر السابق ص277).

عضَّكُم السلاح، ونَخَّسَتْكُمُ الرِّماح. ويومُ دَيْرِ الجماجم وما يومُ دَيْرِ الجماجم، بها كانت المعارك والملاحم:

بِضَرْبٍ يُزيلُ الهامَ عن مقيلهِ ويَذْهَلُ الخليلُ عن خَلِيلِهِ

يا أهلَ العراق، يا أهلَ الكَفَراتِ بعدَ الفَجَرات، والغَدَراتِ بعد الخَتَرات[1]، والنَّزْوَةِ بعد النَّزَوات، إن بعثناكم إلى ثغوركم غَلَلْتُم وجَبُنْتم، وإن أَمِنْتُمْ أَرْجَفْتُم[2]، وإن خِفْتُمْ نافقتُمْ، لا تذكرون نعمةً ولا تشكرون معروفاً، هل استخفَّكم ناكث[3]، أو استغواكم غاوٍ، أو اسْتَنْقَذَكُم عاصٍ ، أو استنصرَكُم ظالم، أو اسْتَعْضَدَكم خالِع، إلا لبيتُم دعوتَه، وأجبتُم صيحتَه ، ونَفَرْتُم إليه خفافاً وثقالاً، وفرساناً ورجالاً. يا أهل العراق ، هل شغبَ شاغبٌ أو نعبَ ناعبٌ ، أو زفرَ زافرٌ إلا كنتم أتباعَه وأنصارَه؟ يا أهل العراق، أَلَمْ تنفعْكم المواعظ؟ أَلَمْ تَزْجُرْكُم الوقائع؟ ألم يُشْدِدِ اللهُ عليكم وَطْأَتَه، ويُذِقْكُمْ حَرَّ سَيْفِه، وأليمَ بَأسِه ومثلاتِه؟

ثم التفتَ إلى أهل الشام فقال : يا أهل الشام ، إنما أنا لكم كالظَّلِيمِ[4] الرَّامِح عن فِراخِه، ينفي عنها القَذِر، ويُبَاعِدُ عنها الحَجَر ، ويُكِنُّها من المطر ، ويحميها من الضباب، ويحرسها من الذباب. يا أهل الشام ، أنتم الجُبَّة والرداء، وأنتم الملاءة والحذاء، وأنتم الأولياء والأنصار، والشِّعار دون الدِّثار، بكم يُذَبُّ عن البيضةِ والحَوْزَة[5]، وبكم تُرْمَى كتائبُ الأعداء، ويُهْزَمُ مَنْ عانَدَ وتولَّى)[6].

---

[1] الخترات: الفسدات (المرجع السابق ص217).
[2] أرجف: خاض في الأخبار السيئة وذكر الفتن. (المرجع السابق ص332).
[3] ناكث العهد: ناقض العهد. (المرجع السابق ص951).
[4] الظَّليم: ذَكَر النعام. (المرجع السابق ص577).
[5] الحوزة: حوزة الرَّجُل: أي ما في مِلْكِه، يعني أنّ أهل الشام تبعٌ له. (المرجع السابق ص206).
[6] البداية والنهاية ج9 ص305، 306.

الحجاج وبعض من أُسِر مع ابن الأشْعَث:-

لما أُتِيَ الحجاج بالأسرى الذين خرجوا مع ابن الأشْعَث، أَمَرَ بِقَتْلِهم؛ فقال رجلٌ: (أصلح الله الأمير، إنَّ لي حُرْمة)، قال: (وما هي؟)، قال: (ذُكِرْتَ في عسكر ابن الأشعث فشُتِمْتَ في أبويك، فعَرَضْتُ دونَهما؛ فقُلتُ: لا والله ما في نَسَبِه مَطْعَن، فقولوا فيه ودَعُوا نَسَبَه)، قال: (ومَنْ يعلم ما ذَكَرْتَ؟)، فالتَفتَ الرجل إلى أقرب الأسرى إلَيه فقال: (هذا يعلمه)، قال له الحجاج: (ما تقول فيما يقول؟)، قال: (صَدَق - أصلح الله الأمير - وبَرّ). فقال الحجاج: (خليا عن هذا لنُصْرَتِه، وعن هذا لحفظه شهادته).

*ولا غرابة في هذه القصة؛ حيث أنه كان قد عرف عن الحجاج نصرته لمكارم الأخلاق، والتماسه أي شئ قد يُمْسِك بسببه عن القتل، حتى ولو كانوا خوارج، كما ذكرنا سابقاً.

ولما أُتِيَ الحجاج بأسرى الجماجم، أُتِيَ فيهم بعامرٍ الشَّعْبِيّ، ومطرِّف بن عبد الله الشِّخِّير، وسعيد بن جبير، وكان الشَّعْبِيّ ومطرِّف يريان التَّقِيَّة، وكان سعيد بن جبير لا يراها، وكان قد تقدم كتاب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج في أسرى الجماجم، أنْ يَعْرِضَهم على السَّيْف. فمن أقرَّ منهم بالكفر في خروجهم علينا فيُخَلَّى سبيلُه، ومن زَعَمَ أنه مؤمن فيضربُ عنقُه. فقال الحجاج للشَّعْبِيّ: (وأنت ممن ألَّبَ علينا مع ابن الأشعث؟ اشهد على نفسِكَ بالكُفْر). فقال: (أصلح الله الأمير، نبا[1] بنا المَنْزِل، وأحزن بنا الجناب، واسْتَحْلَسنا[2] الخوف، واكتحلنا السَّهَر، وخَبَطَتْنا فتنة لم نكن فيها بررةٌ أتقياء، ولا فجرة أقوياء). قال: (لله أبوك! لقد صَدَقْت: ما بَرَرْتُم بخروجكم علينا ولا قَويتُم، خَلّوا سبيلَ الشَّيْخ).

ثُم قال للمُطَرِّف: (أتُقِرّ على نفسك بالكفر؟)، قال: (أصلح الله الأمير، إنَّ مَنْ شَقَّ العصا، وسفك الدماء، ونَكَثَ البيعة، وفارق الجماعة، وأخافَ المُسْلمين لجديرٌ بالكُفْر). فَخَلّى سبيله.

ثم قال لسعيد بن جُبير: (أتُقِرُّ على نفسك بالكفر؟). قال: (ما كفرتُ منذ آمنتُ بالله). فضَرَبَ عنقَه.

ثم استعرض الأسرى، فمن أقر منهم بالكفر خلَّى سبيلَه، ومن أبى قتله، حتى أُتِيَ بشيخٍ وشاب، فقال للشاب: (أكافرٌ أنت؟) قال: (نَعَم)، قال: (لكنَّ الشيخَ لا يرضى بالكفر). فقال

---

[1] نَبا: بَعُدَ.

[2] استحلسنا الخوف: لزمنا الخوف.

له الشيخ: (أعَن نفسي تخادعُني يا حجاج؟ والله لو عَلِمْتُ أعْظَمَ من الكفر لقُلْتُه).
فَضَحِكَ الحجاج وخلّى سبيله[1].

***وقد يرى رائي، أنَّ إلْزام الخارجين على ابن الأشْعَث بالاعتراف بكفرهم للنجاة من القتل أو الإعدام فيه ظُلْم، أقول رُبَّ كافر ليس بخارج عن ملة الإسلم، كالكافر بأنْعُمِ الله، وهذا فِعْلياً ما حدث مع ابن الأشعث والخارجين معه على خلافة عبد الملك؛ إذ كانوا مُنَعَّمين مُرَغَّدين آمِنين تحت ظلِّ الدولة، إلّا أنهم أبَوْا إلّا أَنْ يَنْكُثوا بَيْعَتَهم ويخرجوا على الدولة، فاستَحقّوا العقوبة.**
ومَن اسْتَوْضحَ الرواية السابقة، وجد أن الشَّعْبِيّ ومطرِّف لَمْ يُقِرُّوا بالكُفْرِ حقيقة، لكنهم اعترفوا بذنبهم ولو كان ذلك تَقِيَّة أو أنهم يُظهِرون خلاف ما يُبطنون، فالله أعلمُ بالسرائر، فخلَّى الحجاج سبيلَهما، بخلاف سعيد بن جبير الذي لم يُقرْ بذنبه ولم يُقِرْ بالكفر؛ فاستوجب العقوبة.

ورُوِيَ في سعيد بن جبير أنه كان فقيهاً، وأنه كان مولىً لبني والبة من بني أَسَدْ، وكان الحجاج قد ولّاه على القضاء وبيت المال، وخرج مع ابن الأشعث على عبد الملك بن مروان، فلما قُتِلَ ابن الأشعث وانهزَمَ أصحابه في دير الجماجم هرب فلحق بمكة، وكان واليها يومئذٍ خالد بن عبد الله القَسْرِيّ، فأخذه وبعث به إلى الحجاج، فقال له الحجاج: (يا شَقِيَّ بن كُسَيْرٍ أما قَدِمْتَ الكوفة وليس يؤمُّ بها إلا عربيّ فجعلتُكَ إماما؟) فقال: (بَلَى)، قال: (أما ولَّيْتُكَ القَضاء، فضجَّ أهل الكوفة وقالوا: لا يصلح للقضاء إلا عربيّ، فاستقضيتُ أبا بُرْدة بن أبي موسى الأشعريّ، وأمَرْتُه أن لا يَقْطَعَ أمراً دونَك؟) قال: (بَلَى)، قال: (أما جَعَلْتُكَ من سُمَّاري وكلهم رؤوس العرب؟) قال: (بَلَى)، قال: (أما أعطيتُك مائة ألف درهم تفرِّقها على أهل الحاجة في أول ما رأيتُك ثم لم أسألْك عن شئ منها؟) قال: (بَلَى)، قال: (فما أخْرَجَكَ عَلَيّ؟) قال: (بيعة كانت في عُنُقي لابن الأشعث)، فغضِب الحجاج ثم قال: (أما كانتْ بيعة أمير المؤمنين عبد الملك في عُنُقِك من قبل؟ والله لأقتُلنَّك)[2].

***وبَعْضُ الناس يَسُبّون الحجاج لقتله سعيد بن جبير المعروف بفقهه وورعه، أفلا ينظرون ماذا فَعَلَ؟!!!**
ورُوِيَ أيْضاً أنه لما دخل سعيد على الحجاج كلَّمَه بتحدٍ وكأنّه لم يَقْتَرِف إثماً، وأخذ الحجاج يسأله: (فما تقولُ في محمد ﷺ؟) قال: (نبيٌّ ختم الله به الرسل وصَدَّقَ الوَحي، وأنقذ به من الهَلَكة إمام هدى ونبي رحمة)، قال: (فما تقول في الخلفاء؟) قال: (لستُ

---

[1] العقد الفريد ج2 ص45، 50، 51.
[2] شذرات الذهب ج1 ص383، 384.

عليهم بوكيل، إنما استحفظتُ أمر ديني)، قال: (فأيُّهم أحب إليك؟) قال: (أحسنهم خُلُقاً وأرضاهم لخالقه، وأشدهم فَرَقاً[1]) قال: (فما تقول في علي وعثمان؟ أفي الجنة هما أم في النار؟) قال: (لو دخلتُها فرأيْتُ أهلها إذاً لأخبرْتُك، فما سؤالك عن أمرٍ غُيِّب عنك؟) قال: (فما تقول في عبد الملك بن مروان؟) قال: (مالك تسألني عن امرئٍ أنت واحدةٌ من ذُنُوبِه؟)[2]...

*والممعِنُ في هذه الرواية يرى أن الحجاج قد بذل كافة الطرق كي يُخلي سبيل سعيد، إلا أنه أبى غيرَ ذلك، كما أن سعيد ابن جبير لم يكن خارجاً على الخلافة فقط، بل أنني أرى نَزْعةً شيعية في حديثه، فلم يُصَرِّحْ برأيه في الخلفاء ولا حتى في علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -، وكان هناك من يُكَفِّرَ الخلفاء وعَلِيّ بن أبي طالب نفسه، فما عمده إلى عَدَمِ الإفصاحِ عن رأيه فيهم غير اللَّيّ؟!! فإنَّ خروجَه على الدولة يكفيه لتلقي عقوبته.

وكان هناك رجلٌ يسمى بأيوب بن القِرِّيَّة في عهد الحجاج، ارتفع شأنه في الفصاحة والبيان، فلما قدم على الحجاج أعجبه، وقرَّبَه وجعله من جُلَسائه ومستشاريه.
وعندما خرج ابن الأشعث على الدولة، بعَثه الحجاج إليه برسالة، فقال له ابن الأشعث: (لَتَقُومَنَّ خطيباً بِخَلْعِ عبد الملك، وتسبَّ الحجاج، أو لأضرِبَنَّ عُنُقَك)، فقال: (أيها الأمير، إنما أنا رسول)، قال: (هو ما أقولُ لك)، فَفَعَلَ ذلك، وأقامَ عنده. فلما هُزِمَ ابن الأشعث، بعث الحجاج إلى عُمَّالِه أن لا يجدوا أحداً من أصحابِ ابن الأشعث إلا أرسلوه إليه أسيراً، فكان ممن أرْسِلُوا ابن القِرِّيَّة، فأخذ الحجاج يسأله عن البلدان والقبائل ومآثر العرب في الجاهلية والأراضي والآفات، والقِرِّيَّة يجيب. حتى سأل الحجاج: (فما آفة الحجاج بن يوسف؟) قال: (لا آفةَ لِمَنْ كَرُمَ حَسَبُه، وطابَ نَسَبُه، وزكا فَرْعُه)، فقال: (أظْهَرْتَ نفاقاً)، ثم قال: (اضْرِبوا عُنُقَه)، فلما رآه قتيلاً نَدِم[3].

*ويبدو أن الحجاج لما سمِعَ مدْحَ القِرِّيَّة له، ظن أنه يخادعه؛ فكما مَدَحَه أمَامَه كان قد سبَّه من قبل مع ابن الأشْعَث، فظنَّ أن لا أمان له، وأنَّ رجُلاً شديد الخطابة كهذا يمكنه أن يُؤَجِّجَ نارَ الخُروج من جديد بلسانه، وأنَّ ظاهر الأمر أنه استمر مع ابن الأشْعَث بالرغم من أنه كان يمكنه طلب الأمان من الحجاج من قبل لكنه لم يفعل؛ فدقَّ الحجاجُ عُنُقَه. وأظُنُّ أن الحجاج قد نَدِمَ على مَقْتَلِه، لظنه في احتمالِ أن يكون قد أُجْبِرَ بالفعل على الخروج على الدولة مِنْ قِبَل ابن الأشعث.

---

[1] الفَرَق: هو الخوف.
([2]) المرجع السابق ج1 ص384 : 386.
[3] المرجع السابق ج1 ص342 : 346.

الحجاج وجامع المحاربيّ:-

دخل جامع المحاربي على الحجاج - وكان جامع شيخا صالحا خطيبا لبيبا جريئا على السلطان وهو الذي قال للحجاج إذ بنى مدينة واسط بنيتها في غير بلدك، وتورثها غير ولدك، فجعل الحجاج يشكو سوء طاعة أهل العراق وقبح مذهبهم. فقال له جامع: أما إنه لو أحبّوك لأطاعوك، على أنهم ما شنئوك لنسبك، ولا لبلدك، ولا لذات نفسك؛ فدع عنك ما يبعدهم منك إلى ما يقرّبهم إليك، والتَمِس العافية ممن دونك، تُعْطِها ممن فوقك، ولْيَكُن إيقاعك بعد وعيدك، ووعيدك بعد وعدك. قال الحجاج: ما أرى أنْ أرُدَّ بَني اللَّكيعة إلى طاعتي إلا بالسيف. قال: أيها الأمير، إن السَّيْفَ إذا لاقى السيف ذهب الخيار. قال الحجاج: الخيارُ يومئذٍ لله. قالَ أجَلْ ولكنَكَ لا تَدري لمن يجعل الله. قال: يا هناه، إنَّك من محارب. فقال جامع:-

وللحَرْبِ سُمِّينا وكُنَّا مُحارِبا	**إذا ما الْقَنَا أمْسَى في الطَّعنِ أحْمَرا**

فقال الحجاج: والله لَقَد هَمَمْتُ أنْ أَخْلَعَ لسانَكَ فأضْرِبَ به وجْهَك. قال جامع: إنْ صَدَقناك أغضبناك، وإنْ غَشَشْنا أغضَبنا الله فغَضَبُ الأميرِ أهون علينا من غضب الله. قال: أجل، وسَكَن. وشُغِلَ الحجاج ببعض الأمر، فانسلَّ جامع، فَمَرَّ بينَ الصفوف من أهل الشام حتى جاوزها إلى صفوف أهل العراق، فأبصر كَبْكَبة فيها جماعة من بَكْرِ العراق؛ فلمَّا رأوه اشرأبُّوا إليه وقالوا له: ما عِندك دَفَعَ الله عنك؟ قال: وَيْحَكم! عُمُّوه بالخَلْع كما يَعُمُّكم بالعداوة، ودعوا التعادي وما عداكم؛ فإذا ظفرتم تراجعتم وتعاديتم. أيها التميميّ، هو أعدى لكَ من الأُزْدِيّ، أيها القيسيِ هو أعْدى لكَ من التَّغْلبيّ. وهل ظَفَرَ بِمَنْ ناوَءَه مِنْكُم إلا بمَنْ بَقِيَ معه منكم.

وهرب جامع من فوره ذلك إلى الشام، واستجار بِزُفَرِ بن الحارِث فأجارَه[1].

***وهنا يَظْهَرُ كلام جامِعِ المعسول للحجاج، حتى إذا انْفَرَدَ بِأهلِ العراقِ فَتَنَ وألَّبَ الناس؛ فظهَرَ لنا في الأخير أنَّ كلام الحجاج كالسَّيف، لا نِفاقَ فيه ولا خِداع، بخلافِ غيره من الفتانين الذين يُعادُوه.**

---

[1] العقد الفريد ج2 ص53.

إنجازات الحجاج في العراق:-

حكم الحجاج العراق نحواً من عشرين سنة[1] حتى مات، وامتدت ولايته من شرق الجزيرة الفراتية والموصل وأذربيجان وأرمينية لتشمل العراق وطبرستان وخُراسان وماوراء النهرين (أي تُركستان) وفارس وسَجِسْتان وكرمان وحوض نهر السِّنْد (أي باكستان)، بالإضافة إلى الأهواز والبحرين واليمامة وحَضْرَمَوْت واليمن. ويروي المدائني (أَنَّ عمل العراق من هيت إلى الصين والهند والسِّند). كذلك الري وخُراسان والدَّيْلَم وجيلان والجبال وأصْبَهان. والعراق في الطول من عانة إلى البصرة، والبصرة تتاخم الأهواز، والأهواز تتاخِمْ فارس، وفارس تتاخم كرمان، وكرمان تتاخم كابُل، وكابُل تتاخم زرنج، وزرنج تتاخم الهند. وكانت ولايته أخطر ولايات الدولة الأموية وأوسعها وأشدها للفِتَن على الإطلاق. وكانت له فيها إنجازات جمة:-

- **ضمان ولاء جميع أجزاء ولايته للدولة الأموية، والقضاء على أي فِتنة، وجمع الأموال اللازمة لها، واستئناف حركة الفتوح.**

- **عدم تهاونه في تقصير ولاته في أموال الدوله؛ حتى أنه رُوِيَ أنَّه حبس مالك بن أسماء بن خارجة الفزاريّ شقيق زوجته هند لتصرفه بالأموال أثناء ولايته على أصفهان ولشربه الخمر، ورَفَضَ والده أنْ يَتَوَسَّط لابنه لعدم قبول الحجاج للوساطة، وقال:-**

أَبَنِي فَزَارَةَ لا تُعْتَوْا شَيْخَكُم ... مــا لـِي وما لِـزِيارةِ الحَـجَّاجِ

لا تَطْلُبوا حَاجــاً إليه فَإنَّــهُ ... بِئْسَ المُأَمَّلُ في طِلابِ الحاجِ

وحَذَّرَ الحجاج أفرادَ أسرته وحاشيته من عقوبة التدخل في شئون صاحب شُرْطته، وهدَّدَ بقتل كل من يفعل ذلك.

- **اجتهاد الحجاج في اختيار عمّاله وأعوانه ومُساعديه الذي عيَّنَهم على جهازه الإداري والمالي، وعمل على توفُّر مثل صفاته فيهم، كما سَبَقَ أن ذكرنا، لضمانِ الأمانة والنزاهة في ولايته الواسعة النطاق، وعمل على مراقبتهم وعقابهم إذا تهاونوا في شئ مما عُيِّنوا لأجله.**

- **اهتم الحجاج باختيار أفراد إدارته ومُستشاريه وحُجَّابِه وكُتَّابِه، حتى أنَّه كان يقول: (حاجبُ الرَّجُل وجهه، وكاتبُه كله)، وضَمَّ مَجْلسه عددا من مستشاريه من ذوي المكانة والأدب والفقه، يستشيرهم في الأمور كلِّها وفيما يَعْضُل عليه من أمور وخصوصاً في أمور الحرب، كما عَيَّنَ الحجاج رجلا من ثِقاته يُدْعى يحيى بالقيامِ خلف ظهره ينبِّهه إذا غَفَلَ أو**

---

[1] تهذيب التهذيب ج1 ص363.

نَسِيَ شيئاً في مجلِسه، فيقولُ له: (اذْكُر الله يا حَجَّاج) فيَفطِن إلى ذلك ويذكر ما بدا له أن يَذكُرْ.

● كان هناك ديوان للرسائل في عهد الحجاج، الذي كان يُلْحَق بقصر الإمارة، ويختص بكتابة الرسائل والتعليمات إلى العمَّال ، وإصدار عهود توليتهم العمل، واستلام رسائلهم الموجَّهة إلى الحجاج، والرسائل والالتماسات التي يرفعها الناس إليه للنَّظر في مطالبهم، وكان يتولّى هذا الديوان عدد من الكُتَّاب الذين امتازوا بالفصاحة وحُسْن الأسلوب، وقد ترأسهم يزيد بن أبي مُسْلِم مولى الحجاج، وظلَّ يزيد بن أبي مسلم يشغل منصبه لأمانته، وكان كل من الكتاب يأخذون على أعمالهم أجراً، يتراوح بحسب المنصب. وخُتِمَتْ رسائل الحجاج بخاتم الأمير، واحتفظ الحجاج بنُسَخٍ من الرسائل منعاً للتلاعب والتزوير. وكانت تُنْقَلُ الرسائل العادية بالبريد، أما الرسائل المهمة فكان يقوم بإرسالها مبعوث خاص.

● كان جهاز الأمن يَنْقَسِم إلى قسمين، الأوَّل: جهاز الشرطة الذي يحافظ على الأمن الداخليّ للولاية يتولاها صاحب الشرطة والذي يعاونه شرطة وحُرَّاسٌ وعَسَس، والثّاني: جهاز الاستخبارات للمحافظة على أمن الدولة، وكان الحجاج يعتني باختيار أصحاب شرطته عناية فائقة، وكان يتوسَّمُ فيهم قوة الشخصية والمهابة والشِّدة، وكان صاحب الشرطة تتركز مهمته في المدن فقط، ويعاونه أفراد شرط وحراس وعسس بلغ عددهم في البصرة فقط في زمن الحجاج أربعة آلاف، أما ضبط الأمن خارج المدن فكان مسئولاً عنها سكانها الأصليون والقبائل، كانوا يُنْذَروا إذا وقعت حادثة في منطقتهم بإنزال أشدِّ العقوبة عليهم؛ حيث يُرْوى أنَّ بني عمرو بن حَنْظَلة قطعوا الطريق الذي يمر بهم، فكتب الحجاج إليهم مُحَذِّراً: (أقسم بالله لئن عاودتم الظلم وسعَيْتم في الإثم لأبعَثَنَّ عليكم خيلاً تدع نساءكم أيامى وأولادكم يتامى! فأيّما رفقة وردت ماء قوم لكم فأهل الماء ضامنون لها، إن تجاوزتم ماء غيرهم، تقدمة مني إنذاراً لكم، فالانتقام يعقب العفو، والإنذار لا بقية معه والسَّلام!)، وكان الحجاج يقوم بجولات ليلية في أرجاء عاصمته بنفسه ليستطلع أحوال الناس.

● واهتم الحجاج بجهاز الاستخبارات؛ فاستعان بمجموعة كبيرة من العيون والمخبرين لصيانة أمن الدولة من المتربصين بها ومدبري الفتن والمكائد ضدها، فكان مخبروه يطلعونه على المعلومات التي يحتاج إليها في الوقت المناسب لإحباط خططهم، وانتشرت العيون في كل مكان حتى خشي مُطْرَف بن المغيرة حين تحدث عن خلع الحجاج في المدائن أن تبلغ مقالته الحجاج. ولكفاءة العيون تمكن الحجاج خلال يومين من معرفة الوجهة التي كان يقصدها يزيد بن المُهَلَّب بعد فراره من السجن إلى بلاد الشام، حيث

التجأ إلى سليمان بن عبد الملك في فلسطين. وبلغ ذكاء الحجاج وحسن تدبيره أنه كان يبعث عيوناً خلف جميع رُسُلِه، الذين يوفدون في مهام رسمية من قبل الحجاج، ليتأكد من قيامهم بمهامهم على أكمل وجه. فحفظ جهاز الاستخبارت الدولة الأموية من الانهيار المبكِّر.

● وكان الحبس من العقوبات التي كانت تطبق في عهد الحجاج؛ ويبدو أن الفوضى التي كانت قد سادت العراق قبل عهد الحجاج، وتعوُّد الناس على المخالفة والتمرُّد حتى في عهد الحجاج، جعلَت العقوبات في عهده تتسم بالشدة والقسوة أحياناً. إلا أنَّ الحجاج لم يَكُ لِيَبْطِش إلا بعد التحذير والإنذار كما ورد عنه: (فالانتقام يعقب العفو، والإنذار لا بقية معه).

● جعل الحجاج في كل مدينة في ولايته قاضياً بين الناس، وما إن وَصَل الحجاج إلى العراق، حتى وَلَّى القضاءَ أفقهُ الناس وأتقاهم.

● أنشأ الحجاج ديواناً للعطاء في مدينة واسط، الذي كان مهمته تسجيل أسماء آخذي العطاءات ومقدار أعطياتهم، فكانت مهمته تسجيل أسماء الجنود وتسجيل مقدار مرتباتهم.

● كان الحجاج نفسه يشترك أحياناً في استعراض الجند، وتفقُّد استعداداتهم وعدتهم.

● للحجاج جهود كبيرة في خدمة الأسطول الإسلامي؛ فكان هو أول من بنى السُّفن المُقيَّرة - أي المدهونة بالقار أو النفط - والمُسمَّرة والمدهونة والمسطحة.

● كان في كل إقليم من ولاية الحجاج ديوان للخراج، يُنَظِّم وضع هذه الضريبة وجبايتها، وظل الحجاج مسئولاً عن ديون الخراج في العراق حتى قبيل وفاته.

● كان للحجاج فضل السبق في صك العملة العربية في الدولة الإسلامية على أوسع نطاق، ووضع القواعد والأصول التي تسير عليها؛ فوُكِّلَ للحجاج أمر ضرب العملات العربية - أي صكها -، وأنشأ في الكوفة وواسط داراً لضرب العملات أوجد فيها السباكين، فكان يضرب المال للسلطان بخلاصة ما يجتمع له من التبر وخلاصة العملات الرديئة المزيفة والباطلة، ولكي يتلافى محاولات الغش راقب عُمَّال الضَّرب مراقبة صارمة، ووسمهم بعلامة في أيديهم.

● كان الحجاج أول من عمل على تعريب الدواوين في بلاد السواد والعراق؛ حيث كان هناك ديوانان بالكوفة والبصرة، واحد لتسجيل الجند وأعطياتهم وهذا بالعربية، والآخر لوجوه الأموال وكان بالفارسية.

● وقد عني الحجاج بشق القنوات، وحفر الأنهار، وإصلاح الأرض البور، وتجفيف المستنقعات، وأكثر من الثروة الحيوانية؛ وفي يوم سأل دهّاقوا العراق سعد بن أبي وقاص أن يحفُرَ لهم نهراً، فكتب إلى سعد بن عمرو بن حرام يأمره بحفره لهم، فجمع الرجال لذلك، فحفروا فيه حتى انتهوا إلى جبل لم يتمكن الفَعَلَة من شَقِّه فتوقف العمل فيه، واستمر كذلك حتى تولى الحجاج أمر العراق فجمع الفَعَلَة من كل ناحية، وقال للقائمين بالأمر: (انظروا إلى قيمة ما يأكل كل رجل من الحفَّارين فإن كان وزنه مثل وزن ما يَقْلَع فلا تمتنعوا من الحفر)، فأنفَقوا عليه حتى استتموه، فنُسِب الجبل إلى الحجاج، ونُسِب النهر إلى سعد بن حرام. كما أعاد حفر الأقنية التي كانت قد طُمِرَت بالمعارك والحروب[1].

● وكان لا يترك كل الإصلاح للحكومة، وإنما كان يدع أمر إصلاح الجسور وترميم السدود وصيانتها لأصحاب الضياع التي تنتفع بها، وخصوصاً إذا كانوا من أغنياء القوم، فإذا أهملوا في ذلك ففاضت المياه على أراضيهم فأغرقتها وطالبوا الحكومة بالتعويض، رفض الحجاج ذلك حتى يكونوا عبرة للمهملين، إلا إذا تأكد أن طالبي المساعدة من الفقراء أو في ضيق من أمرهم[2].

● كما بنى الحجاج مدينة واسِط سنة ٨٤هـ بالعراق لتكون عاصمة له، والتي عُرِفَتْ بِواسط الحجاج[3]، وبنى فيها مسجدين واحد صغير وآخر كبير، ومقبرة وحصن وسوق[4][5][6].

● وبنى الحجاج مدينة النيل التي بناها على نهر قد حفره وسماه بنفس الاسم.

● وبُنِيَتْ بلدةٌ مشهورة في عهده بنواحي خوزاستان بالقرب من رُستَقباذ سُمِّيَت بمَكْرَم نسبة إلى مكرم بن معزاء الحارثيّ صاحب الحجاج، وقيل: مكرم مولى الحجاج الذي أرْسِلَ من قِبَلِ الحجاج لمحاربة خُرَّزاد بن إياس حين عصى وتحصَّن بقلعة تعرف به، فلما طال

---

[1] تاريخ الأدب العربي ج1 ص550.
[2] قراءة في سيرة الحجاج بن يوسف الثقفي ص99 : 159.
[3] تهذيب التهذيب ج1 ص363.
[4] البداية والنهاية ج9 ص300.
[5] قراءة في سيرة الحجاج بن يوسف الثقفي ص158.
[6] تاريخ الأدب العربي ج1 ص550.

عليه الحصار، نزل متخفِّياً ليلحق بعبد الملك بن مروان، فلحق به مكرم، وأخذه وبعث به إلى الحجاج.

- **وبنى محمد بن القاسم للحجاج أثناء ولايته لفارس مدينة شيراز.**

- **وقد بنى الحكم بن نهيك الهجيميّ - الذي كان والي كرمان من قِبَل الحجاج -، في أرجان مسجدها ودار إمارتها[1].**

- **ومسح الحجاج العراق أي قاسه وعيَّنَ أماكنه وقيَّد الأملاك فيه.**

- **كما وَحَّدَ المكاييل والمقاييس والموازين.**

- **وجَعَلَ الحجاج الخِدمة في الجيش إجبارية.**

- **وبعد ذلك توجه للفتوح الإسلامية نحو المشرق، ففتح بلْخ وطُخارستان وفرغانة من أواسط آسيا، وفتح السِّند غربيّ الهند، حتى وصلت الفتوحات إلى كاشغر على حدود الصين[2].**

---

[1] قراءة في سيرة الحجاج بن يوسف الثقفي ص158، 159.

[2] تاريخ الأدب العربي ج1 ص550.

أدبه وبلاغته

اتسم العصر الأمويّ بالفصاحة والبيان، وسهولة إنشاد الشِّعر، وخصوصاً في شبه الجزيرة العربية التي كان منها الحجاج. حيث تأثَّر الحجاج ببيئة الطائف التي اشتهرت بفصاحة أهلها، بالإضافة إلى أنَّ نشأتَه في كَنَفِ والده وتربيته وتأديبه على يديه، جعلته فصيحَ اللسان موفور البيان، مما جعله يشتغل بتعليم أولاد الطائف كأبيه؛ فالمعلم وقتها كان لابد أن يتسم بقدر جمٍّ من العلم والأدب والبيان، يجعله مؤهّلاً لتعليم القرآن وشرح معانيه، واللغة العربية ودهاليزها، ومما أثر في فصاحته أيضاً قراءته للقرآن وفهمه له وحفظه له عن ظهرِ قلْب.

وشهد له الناس بالفصاحة حتى قال العالم أبو عمرو بن العلاء عنه: ما رأيت أفصح منه - أي الحجاج - ومن الحسن البصريّ[2][1].

وكان الحجاج خطيباً بارعاً، امتاز بجميع خصائص عصره في متانة التركيب وجزالة اللفظ وقِصَر الجمل والموازنة بينها، واتَّسمت خطبه بعدم التَّكلف فكان السجع والصناعة فيها قليلين، وكان دائماً ما يقتبس في خطبه من القرآن الكريم والمأثور من الشعر والأمثال. وكان واسع الدراية بالناس وطرقهم، وكان من فِطْنَتِه ينفذ إلى داخل نفوسهم[3]، وما حَذَّر إلا وقد أوفى بتحذيره، وما وعَدَ إلا وأوفى.

ومِنْ خطبه المشهورة، خطبته حين تولى العراق - في الكوفة - التي كنا قد ذكرناها سابقاً.

وكان يتجنب الغريب والمقعر من الألفاظ، حتى أنه يقول: (البليغ من سهل لفظُه، وحسنتْ بديهتُه).

وقد طَرِب عبد الملك بفصاحة الحجاج وأسلوبه في الكتابة فقال في أسلوبه: (إنَّ من البيانِ لَسِحْراً).

---

(1) البداية والنهاية ج9 ص301.

(2) قراءة في سيرة الحجاج بن يوسف الثقفي ص332.

(3) تاريخ الأدب العربي ج1 ص551.

ولم يَكُن مِنَ السهل على الحجاج أن يَلْحَنْ - أي يُخْطئ في النحو -، فكان يتجنبه لأنه كام مطبوعاً على اللغة والبيان طباعة، ورُوِيَ أنه في يوم لَحَن، فقال الناس: لَحَنَ الأمير فأخبره بذلك بعض من حضر، فاقتبس قول الشاعر قعنب ابن أمِّ صاحب:-

صُمٌ إذا سَمِعوا خَيْراً ذُكِرْتُ بِـهِ　　وإنْ ذُكِرْتُ بِسُوْءٍ عِنْدَهُم أَذِنُـوا

إنْ يَسْمَعُوا رِيبَةً طَارُوا بِهِ فَرَحاً　　مِنِّي وما سَمِعُوا مِنْ صَالِحٍ دَفَنُوا

وكان الحجاج يتذوَّق العبارات الأدبية ويدقق فيها بطريقة تجعله يحدِّدُ أسلوب صاحبها، وليس أدَلُّ على ذلك من أَنَّ الحجاج كان قد بَعَث برسالة لابن الأَشْعَث يُحَذّشرْه فيه من مغبة الخروج على الدولة كما سبق أن ذكرنا، فبُعِثَ له من ابن الأَشْعَثِ رسالة رادّاً فيها على خطابه، إلا أنَّه لما قرأها علم أنَّ هذا ليس بأسلوب ابن الأشعث في الكتابة، وإنما هو أسلوب ابن القِرِّيَّة، حيث كان ابن القِرِّيَّة من جلساء الحجاج ومن مشاوريه، فعلم أسلوبَه وأدْرَكَ أنَّ ابن القِرِّيَّة قد انضمَّ لابن الأَشْعَثِ في حركته.

ولمَّا كتب إليه قُتيبة بن مُسْلِم يُخبره فيه أنَّه قد فَتَحَ فرغانة فيما وراء النهر، علم بأنَّ أسلوب الكتابة ليس بأسلوب قُتَيْبَة، وإنَّما أسلوب عامر الشُّعْبِيّ الذي كان قد خرج مع ابن الأشعث في حركته، ثمَّ انْضمَّ بعد الأمان إلى قوات قُتَيْبَة، فأرسَل الحجاج إلى قُتَيْبة يقول: (إذا نَظَرْتَ في كتابي هذا فإنَّ صاحِبَ كتابِكَ الشُّعْبِيّ) وطلب أنْ يُرْسِلَه له، ففعل. فلمّا جاء الشُّعْبِيُّ الحجاج ومَثَل بين يديه قال: (أيها الأمير! إنَّ الناس قد أمروني أنْ أعْتَذِرَ إليك بغير ما يعْلَم الله أنَّه الحق. وايم الله! لا أقولُ في هذا المقام إلا حقا، فقد والله سوَّدْنا عليكَ وحَرَّضنا وجهدنا عليك كلَّ الجهد وما آلَوْنا فما كنّا بالأقوياء الفَجَرَة، ولا الأتقياءِ البَرَرَة، ولقد نَصَرَكَ اللهُ علينا وظَفَرَكَ بِنا، فإنْ سَطَوْتَ فَبِذُنوبِنا وما جَرَتْ إليه أيديْنا، وإنْ عَفَوْتَ عنَّا فَبِحِلْمِك وبَعْدَ الحُجَّةِ لك علينا!)، فقال له الحجاج: (ما أنتَ والله أحَبُّ إلَيَّ قَوْلاً مما يَدْخُلُ عَلَيْنا يَقْطُرُ سَيْفُه مِنْ دِمائنا ثُمَّ يَقول: ما فَعَلْتُ وما شَهِدْتُ. قَدْ أَمِنْتَ عِنْدَنا يا شُعْبِيّ). وبهذا قد أنْجَت الشُّعْبِيَّ فصاحتُه التي أعْجَبَت الحجاج.
*ويبدو أنَّ الحجاج قد عَلِمَ صِدْقَ حَديثِه وَنَدَمِهِ فعفى عنه؛ فهذا هو المعروف عن الحجاج يَرَى الشَّخص في لِسانِه عندما يتكلَّم، وتتسرَّبُ عينُه إلى أغوار نَفْسِه فكأنَّما يرى ما بِقَلْبِه.

وفي مرَّةٍ بعث يزيد بن المُهَلَّبِ برسالة للحجاج من خُراسان الذي كان عاملاً عليها، كُتِبَ فيها: (إن لقينا العدو، وفعلنا وفعلنا واضطُرِرْنا إلى عُرْعُرَة[1] الجَبَل) فقال الحجاج: (ما لابن المُهَلَّبِ وهذا الكلام؟) فقيل أنَّ يحيى بن يَعْمُر عِنْدَه، والذي كان وقتها كاتباً ليزيد ابن المُهَلَّب، فأدرَكَ أنَّه هو الذي كان قد كتب الرِّسالة، فصار الحجاج يقرأ كُتُبَه ويتعجب، فكتب إليه أنْ يأتِيَ فَقَدِم. فقال له: (أين وُلِدتَ؟)، قال يحيى: (بالأهواز). فقال له الحجاج: (فما هذه الفصاحة؟)، فأجابه: (كان أبي فصيحاً، فأخَذتُ ذلِكَ عنه).

وكان الحجاج يُسْحَرُ بالكلام الفصيح، فرُوِيَ أنَّ فتى قَدِمَ بين يديه فقال: (أصلح الله الأمير! مات أبي وأنا حَمَل، وماتت أمي وأنا رضيع، وكفلني الغرباء حتر تَرَعْرَعْت، فوثَبَ بعض أهلي على مالي فاجتاحتْه، وهو هاربٌ مني ومِن عدل الأمير). فَطَرِبَ الحجاج لفصاحته فقال: (الله! مات أبوك وأنت حَمَل وماتت أمك وأنت رضيع وكفلك الغرباء فلم يمنَعْكَ ذلك من فلج لسانك وأنبأتَ عن إرادتِك! اطردوا المؤدِّبين عن أولادي).

ويُرْوَى أنَّ الحجاج كلَّمَ أعرابيّاً فوجده فصيحاً فسأله: (كيف تركتَ الناسَ وراءَك؟)، فقال الأعرابيّ: (تركتُهم، أصلحَ الله الأمير! حين تفرَّقوا في الغطيان، وأخْمَدوا النيران، وتشكت النساء، وعرض الشاء، ومات الكَلْبُ). فقال الحجاج لِجُلَسائه: (أَخِصْباً نَعَتَ أم جَدْباً[2]؟)، قالوا: (بل جَدْباً)، فقال الحجاج: (بل خصْباً. فقوله: تفرَّقوا في الغطيان معناه أنَّها أعشَبَت فإبِلهم ترعى. وأخمدوا النيران، معناه استَغْنَوا باللبن عن أنْ يَشوُوا لُحومَ إبِلِهم وغَنَمِهم لأكلِها. وتشكت النساء أعضادهن من كثرة ما يَمْخُضْن الألبان، وعرض الشاء سمنٌ مِنْ كثرة العُشْبِ والمَرْعَى، ومات الكلب ولَمْ تَمُتْ أغنامُهم وإبِلُهم فيأكل جيفها). فدلَّ ذلك على فصاحة الحجاج ومدى علمه بطرق بيان العرب وتعبيرهم.

وكان الحجاج مُحباً للشِّعْرِ ناقِداً له حافظاً للجَيِّدِ منه، مُسْتَشْهِدٌ به في خُطَبِه وغيرِها. كما كانَ مُنْشِداً للشِّعرِ أيْضاً، إلا أَنَّ ما أَلَّفَه وأنْشَدَه لم يَكُنْ بالكَثير؛ حيْث شُغِلَ بما هو أهَم، وهو تنظيم شئون ولايته والجهاد، ولكن ذكر بعضٌ منه وخُصوصاً في أوَّلِ خطبة له في الكوفة حين قَدِمَ العراق والِياً عليها. ولكن استعاض عن الشعر بالتفنن في أسلوب الكتابة والخطابة. ولكن يُذكَرُ أَنَّه لما قُتِل ابن الأشْعَث وَصَفَّتْ له العراق، وَسَّعَ على النَّاس في العطاء، فَكَتب إليه عبد الملك: أما بعد فقد بلغ أمير المؤمنين أنك تنفق في اليوم ما لا ينفقه أمير المؤمنين في الأسبوع وتنفق في الأسبوع ما لا ينفقه أمير المؤمنين في الشهر، ثم قال مُنْشِداَ:-

---

[1] عُرْعُرَة الجبل: أي أعلاه. (المعجم الوسيط ص595).
[2] الجَدْب: هو اليابس. (المرجع السابق ص109).

عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللهِ فِي الأمْرِ كُلِّهِ وَكُنْ يا عُبَيْدَ اللهِ[1] تَخْشَى وَتَضْرَعُ
وَوَفِّرْ خَرَاجَ المُسْلِمِينَ وَفَيْئَهم وَكُــنْ لَــهُم حِـصْناً تُـجِيْرُ وَتَمْنَعُ

فكَتَبَ إليه الحجاجُ شِعْراً أنْشَدَه بنفسِه:-

لَعَمْرِي لقد جاءَ الرسولُ بِكُـتُبِـكُم قَراطِيسَ تُمْلَى ثُمَّ تُطْوَى فَتُطْبَـعُ
كِتَــابٌ أتــاني فيــه لِيْنٌ وَغِلْظَـــةٌ وذُكِّرْتُ والذِّكْرَى لِذِي اللّبِّ تَنْفَعُ
وكـانتْ أمـورٌ تَـعْتَرِيني كـــثيــرةٌ فَــأَرْضَـخُ أو أعْتَـلُّ حِينـاً فأَمنـعُ
إذا كنتُ سوطاً مِنْ عَذابٍ عـليهمُ ولـم يَكُ عِنْدي بِالمَنافِعِ مَطْمَـعُ
أَيَرْضَى بِذاكَ الناسُ أو يَسْخَـطونَهُ أَمْ أُحْـمَدُ فـيهـم أم أُلامُ فَـأُقْذَعُ
وكـانتْ بلادٌ جِئتُها حـين جِــئتُها بــها كـلُّ نِيرانِ الـعـداوةِ تَـلْمَـعُ
فَـقاسَيْتُ مِنْها ما عَلِمْتَ ولم أَزَلْ أُصَارِعُ حتى كِدْتُ بِالموتِ أُصْرَعُ
وكمْ أَرْجَفُوا مِنْ رَجْفَةٍ قَدْ سَمِعْتَها ولــو كــان غَـيري طارَ مما يُـرَوَّعُ
وكُـنْتُ إذا هَـمُّوا بإحدى هَنَّاتِهم حَـسَرْتُ لَـهُمْ رأسـي ولا أَتَقَنَّـعُ
فَلَـو لَـمْ يَذُدْ عَنِّي صَنَادِيدُ منـهمُ تُقَسَّـمُ أعْضـائي ذِئـابٌ وأَضْبُـعُ

فكتب إليه عبد الملك: أن اعمل برأيك[2].

وفي مرة كتب عبد الملك إلى الحجاج يعتبُ عليه في إسرافه في صرف الأموال وسفك الدماء ، ويقول له : إنَّما المال مال الله ونحن خُزَّانُه ، وسِيَان منعُ حق وإعطاءُ باطل .
وكتب في أسفل الكتاب :-

إذا أنتَ لَمْ تَــتْرُكْ أمُوْراً كرهتُهــا وَتَطْلُبُ رِضائي في الذي أنا طَالِبُهْ
وتَخْشَى الذي يخشاه مِثْلُكَ هارباً إلى الله منــه ضَيَّـعَ الدُّرَّ جَالِبُـهْ
فَــإنْ تَــرَ مِنِّي غَــفْلَـةً قُــرَشِـيَّـةً فَيــا رُبَّمَا قَدْ غصَّ بالماء شَارِبُـهْ
وإنْ تَــرَ مِـنّـِي وَثْــبَـةً أُمَـــوِيَّـــةً فَـهـذا وهــذا كُـلُّـه أنـا صاحِبُهْ
فَـلا تَـعْدُ مـا يَأتيكَ مِنِّي فَإنْ تَـعُدْ تَقُمْ فَاعْلَمَنَّ يَوْمـاً عَـلَيْكَ نَوادِبُهْ

---

[1] في تاريخ دمشق: وَكُنْ لِوَعِيدِ الله.
[2] البداية والنهاية ج9 ص311، 312.

فلما قرأه الحجاج كتب : أما بعد فقد جاءني كتاب أمير المؤمنين ، يذكر فيه سَرْفِي في الأموال والدماء، فوالله ما بالغتُ في عقوبة أهل المعصية ولا قضيتُ حق أهل الطاعة، فإن كان ذلك سرفاً فليحُدَّ لي أمير المؤمنين حداً أنتهي إليه، ولا أتجاوزه. وكتب في أسفل الكتاب:-

إذا أنـا لَـمْ أطْلُـبْ رِضَاك وأتَّـقِي ... أذّاكَ فَيَـوْمِي لا تَـوارَتْ كَـوْاكِبُهْ

إذا قارفَ الحَجَّاجُ فِيـكَ خَطِيئَةٌ ... فقامَتْ عليه في الصَّبَاحِ نَوادِبُهْ

أُسالِمُ مَنْ سالَمْتَ مِنْ ذِي هَوادَة ... وَمَنْ لَـمْ تُـسَالِمْهُ فَإنِّي مُحَارِبُهْ

إذا أنـا لَـمْ أُدْنِ الشَّـفِيقَ لِنُصْحِهِ ... وَأقْصِ الذي تَسْرِي إلَيَّ عَـقَارِبُهْ

فَمَنْ يَتَّقِي يَوْمِي وَيَرْجُو إذاً عَـدَى ... عَلَى ما أَرَى والدَّهْرُ جَمٌ عَجَائِبُهْ[1]

*ويبدوا أنَّ الوشاة كانوا بين الفينة والأخرى يوغِلون صدر عبد الملك على الحجاج؛ فأرسل عبد الملك رسالة مليئة بالتهديد والوعيد على أن يُغَيِّر سياسَته التي سَمِعَ بها، وإلا وجد منه ما لن تُحْمَدَ عُقْباه. وهنا يأتي رَدُّ الحجاج مَلِيئاً باللين والخُضُوع حيث أنه كان يرد على الخليفة عبد الملك ويشرح له سبب العقاب بأنَّه كان يُعاقب أهل الفِتَن الذين استباحوها، ويحدَّ الحدود، وأنه كان يتألَّف قُلوبَ بعض من أهل الفتن لاتقاء شرهم، ويكافئ المُخلصين للدولة.

فنَسْتَخلِص من هذا، أنَّ سماع الرأي الآخر في كل الأمور قد يغير رأيك تماماً في الشَّخص الذى كنتَ قد سَمِعتَ أنه فَعَلَ الأفاعيل؛ فيتضح لك أنه مظلوم، وليس أدل على ذلك من ردِّ عبد الملك له أن اعْمَلْ بِرَأْيِك.

فكان هذا من بَعْضِ شِعْرِ الحجّاج الذي كان يُنْشِدُه بَسَليقَتَه اللغوية المطبوعة.

وكان جَرِير بن عطية مِنْ خِيرة الشُّعَراء الذين أطنَبوا في مَدْح الحجاج واتَّصلوا به، فلمّا وصل جرير واسط ودَخَلَ عليه أنْشَدَه قصيدة بدأها بالغَزَلِ كعادة العرب في الشِّعر حتى قال:-

مَن سَـدّ مُطّلَـعَ النِفاقِ عَلَيهِمِ ... أَم مَن يَصولُ كَـصَولَـةِ الحَجّـاجِ

أَم مَن يَغارُ عَلى النِساءِ حَفيظَةً ... إِذ لا يَـثِـقـنَ بِـغَـيـرَةِ الأَزواجِ

إِنَّ ابْنَ يوسُفَ فَاِعلَموا وَتَيَقَّنوا ... مَاضِي البَصيرَةِ واضِحُ المِـنهـاجِ

---

[1] المرجع السابق ج9 ص312، 313.

ماضٍ عَلى الغَمَراتِ يُمضي هَمَّهُ وَاللَيلُ مُخـتَلِفُ الطَرائِقِ داجـي

مَنَـعَ الرُشـا وَأَراكُمُ سُبُلَ الهُدى وَالـلِصَّ نَـكَّـلَـهُ عَـنِ الإِدلاجِ

فَاِستَوسِقوا وَتَبَيَّنوا سُبُلَ الهُدى وَدَعوا النَجِيّ فَلَيسَ حينَ تُناجـي

يـا رُبَّ ناكِـثِ بَيعَتَـينِ تَرَكتَـهُ وَخِـضـابُ لِحـيَتِـهِ دَمُ الأَوداجِ

إِنَّ العَـدُوَّ إِذا رَمَـوكَ رَمَـيتَـهُم بِذُرى عَمايَةَ أَو بِهَضبِ سُـواجِ[1]

وَإِذا رَأَيتَ مُنافِـقينَ تَخَـيَّـروا سُبُلَ الضَجاجِ أَقَمتَ كُلَّ ضَجاجِ

داوَيتَـهُم وَشَـفَيتَهُم مِن فِـتنَةٍ غَـبـراءَ ذاتِ دَواخِـنٍ وَأُجـاجِ

إِنّي لِمُـرتَقِبٌ لِـما خَـوَّفتَـنـي وَلَفَضلِ سَيْبِكَ[2]يا اِبنَ يوسُفَ راجي

وَلَـقَد كَسَرتَ سِنانَ كُلَّ مُنافِقٍ وَلَقَد مَنَـعتَ حَقـائِبَ الـحُجَّاجِ[3]

وقال فيه أيضاً:-

دَعا الحَجّاجُ مِثلَ دُعاءِ نـوحٍ فَأَسمَعَ ذا المَعارِجِ[4]فَاِستَجابا

صَبَرتَ النَفسَ يا اِبنَ أَبي عَقيلٍ مُحافَظَةً فَكَيفَ تَرى الثَوابـا

وَلَـو لَـم يَرضَ رَبُّكَ لَم يُنَزِّل مَعَ النَصرِ المَلائِكَةَ الغِضابـا

إِذا سَـعَرَ الخَليـفَةُ نارَ حَربٍ رَأى الحَـجّاجَ أَثْقَبَها شِـهابا

تَرى نَصرَ الإِمامِ عَلَيكَ حَـقّاً إِذا لَبَسـوا بِـدينِهِم اِرتِيابـا

تَـشُدُّ فَلا تُكَذِّبُ يَومَ زَحـفٍ إِذا الغَمَراتُ زَعزَعَتِ العُقـابا[5]

---

[1] عماية وسواج: جبلان بالعالية.
[2] السَّيب: العطاء.
[3] ديوان جرير ص73، 74.
[4] ذو المعرج: من صفات الله ﷻ.
[5] العُقاب: الراية.

عَفاريتُ العِراقِ شَفيتَ مِنهُم فَأَمسَوا خاضِعينَ لَكَ الرِقابا

وَقالــوا لَن يُجــامِعَنا أَمــيرٌ أَقــامَ الحَــدَّ وَاِتَّبَعَ الكِتابـا

إِذا أَخَذوا وَكَيدُهُمُ ضَعيــفٌ بِبابٍ يَمكِــرونَ فَتَحتَ بابا[1]

وغيرها الكثير من الأبيات والقصائد، فلازال جرير مع الحجاج ينشِدُه الشِّعر وطال بقاؤه، حتى خشي الحجاج من الوُشاة والشَّانئين أن يُلْقوا بدسائسِهم في أذن عبد الملك؛ فأوفد الحجاج جريراً إلى دمشق ليمدح عبد الملك، فمَدَحه بقصيدة آخرها:-

أَلَسْتُم خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطَايا وَأَنْدَى العَلَمِين بُطُوْنَ راحِ

فأُعْجَبَ عبد الملك بشِعْرِه، وكان مُتَّكِئاً فاستوى جالساً وقال: (مَنْ مَدَحَنا فَلْيَمْدَحْ بِمِثْلِ هذا أو لِيَسْكُتْ).

وكان للفرَزْدَقِ أيْضاً نَصيباً في بلاط الحجاج؛ حيث أنه أنشد قصيدة تمدح في الحجاج وتذم في ابن الأشْعَث وجيشه.
وفي يومٍ دخل الناس يُعَزُّون الحجاج في موت ابنه وأخيه في يومٍ كان فيه الفَرَزْدَق، فقال له الحجاج: (أما رَثَيْتَ محمداً ومحمداً؟)، فأنشده قائلاً:-

لَئِنْ جَزَعَ الحَجَّاجُ ما مِنْ مُصِيـبَةٍ تَــكُـونُ لِـمَحْزُونٍ أَمَضَّ وَأَوْجَعَـا

مِنَ المُصطَفَى والمُنْتَقَى مِنْ نِقايَةٍ جناحــاه لمَّــا فــارَقَــاهُ وَوَدَّعَــا

جِـــناناً عتيقٍ فارَقـــاه كلاهمــا وَلَـوْ نُزِعَــا مِـنْ غَيْرِهِ لَـتَضَعْضَعـا

وَلَو أَنَّ يَـوْمَيْ جُمعَتَيْـهِ تتـابَعـا عَلَى شَامِخٍ صَعْبَ الذَّرِيِّ لَتَصَدَّعَا

سَـمِيًّا رَسُــولَ اللهِ سَمَّاهُمَا بِـهِ أبٌ لَمْ يَكُنْ عِنْدَ الحَوَادِثِ أَخْضَعَا[2]

---

[1] المرجع السابق ص20 : 22.
[2] قراءة في سيرة الحجاج بن يوسف الثقفي ص332 : 342.

ومِنهم أيضاً ليلى الأخيلية إذْ قالت فيه:-

أَحَجَّاجُ لا يُفْلَلْ سِلاحُكَ إنّما الــ	**مَنايا بِكَفِّ اللّهِ حيثُ تَراهـا**
أَحَجَّـاجُ لا تُـعْطِ العُصاةَ مُنــاهُمُ	**ولا اللّهُ يُعْطِي لِلْعُصاةِ مُناها**
إذا هَبَطَ الحَجَّــاجُ أَرْضـاً مَريضـةً	**تَـتَبَّعَ أَقْصى دائــها فَشفاها**
شَفاها مِنَ الدّاءِ العُضالِ الذي بِها	**غُـلامٌ إذا هَزَّ القَناةَ سَقاهـا**

إلى أن قالتْ:-

فَمَــا وَلَدَ الأَبْكارُ والعَـوْنُ مِثْلَــهُ	**بِنَجْدٍ ولا أَرْضٍ يَجِفُّ ثَراهـا**

فلمَّا وَصَلَتْ هذا البيت قال الحجاج لجلسائه: (قاتلها الله ما أصاب صفتي شاعرٌ مُذْ دَخَلْتُ العِراقَ غيرُها!)[1].

***وغيرهم وغيرهم من الشُّعراء الذين تنافسوا في مدحه، وقبل أن يأتوا إليه كان يعرف بقصصهم وأخبارهم، فهو الأمير العالم بالشعر والناس.**

وغيرهم أكثر من الكارهين الذين هَجَوْه لِعِلّةٍ فيهم أو لخصومة بينهم وبينه أو لخروجهم عليه.

خُطَبُه في المواعِظ:-

***وكثيرةٌ هي خطبه في المواعظ والرقائق، التي ترقق القلوب وتزهد المرأ في الدنيا وترغب في الآخرة. فهذه خطبة تُذكرُ بالموت، يقول في طياتها أن لا تتكبروا فكلكم إلى التراب راجعون:-**
قال ابن أبي الدنيا: حدثني محمد بن الحسين، حدثنا عبيد الله بن محمد التميميّ: سمعتُ شيخاً من قريش يُكنى أبا بكر التيميّ قال: كان الحجاج يقول في خطبته - وكان لَسِناً - : إن الله خلق آدم وذريته من الأرض فأمشاهم على ظهرها، فأكلوا ثمارها، وشربوا أنهارها وهتكوها بالمساحي والمرور، ثم أدال الله الأرض منهم فردهم إليها، فأكلت لحومهم كما

---

[1] المرجع السابق ص343.

أكلوا ثمارها، وشربت دماءهم كما شربوا أنهارها، وقطعتهم في جوفها، وفرقت أوصالهم كما هتكوها بالمساحي والمرور[1] .

***وهذه خطبة تحضُّ المرأَ على حساب النفس قبل الحساب في الآخرة:-**

ومما رواه غير واحد عن الحجاج أنه قال في خطبته في المواعظ: ألا أيها الرجل، وكلكم ذاك الرجل، رجل خطم[2] نفسه وزَمَّها[3] فقادها بخطامها[4] إلى طاعة الله، وكفها بزمامها عن معاصي الله، رحم الله امرأً رد نفسه، امرأً اتَّهَم نفسَه، امرأ اتَّخَذَ نفسَه عَدُوَّة، امرأً حاسب نفسه قبل أن يكون الحساب إلى غيره، امرأً نظر إلى ميزانه، امرأً نظر إلى حسابه، امرأً وَزَنَ عملَه، امرأً فكَّر فيما يقرأ غداً في صحيفته ويراه في ميزانه، وكان عند قلبه زاجراً، وعند همِّه آمراً، امرأً أخذ بعنان عمله كما يأخذ بعنان جَمَلِه، فإن قاده إلى طاعة الله تَبِعَه، وإن قاده إلى معصية الله كفَّ، امرأً عقل عن الله أمره، امرأً فاق واستفاق، وأبغض المعاصي والنفاق، وكان إلى ما عند الله بالأشواق. فما زال يقول امرأً امرأً . حتى بكى مالك بن دينار.

***وأخرى يتكلم فيها عن التيقظ لِقِصَرِ العمر، والعمل للآخرة، فالعمر ليس بمضمون:-**

وقال المدائني، عن عوانة بن الحكم قال: قال الشَّعبي: سمعتُ الحجاج تكلم بكلام ما سبقَهُ إليه أحد، فيقول: أما بعد فإن الله تعالى كتب على الدنيا الفناء، وعلى الآخرة البقاء، فلا فناء لما كتب عليه البقاء، ولا بقاء لما كتب عليه الفناء. فلا يغرنكم شاهد الدنيا عن غائب الآخرة، واقهروا طول الأمل بقِصَرِ الأجَل.

***وفي أخرى يتكلم عن العبادة:-**

فقال المدائني، عن أبي عبد الله الثقفي، عن عمه قال: سمعت الحسن البصري يقول: وَقَذَتْني[5] كلمة سمعتها من الحجاج، سمعته يقول على هذه الأعواد : إنْ امرأً ذَهَبَتْ ساعةٌ مِنْ عُمْره في غير ما خُلِقَ له لَحَرِيٌّ أنْ تطولَ عليها حسرتُه إلى يوم القيامة[6] .

---

[1] البداية والنهاية ج9 ص306، 307.

[2] خَطَم نفسه: المقصود بها رَوَّضها وألجمها. (المعجم الوسيط ص245).

[3] زَمَّ: أي شَدَّ على نفسه. (المرجع السابق ص401).

[4] الخِطام: أي الزِّمام وما وضع على خطم الجمل أي أنفه لياقد به. (المرجع السابق ص 245).

[5] وقذتني: أي ضربتني. (المرجع السابق ص1048).

[6] البداية والنهاية ج9 ص307.

فرُوِيَ الكثير والكثير عن خوفه من الله عز وجل، ومنها ما روى ابن سعيد: كان طاووس بمكة والحجاج بن يوسف بها، فنظر الحجاج إلى طاووس فقال: مِنْ أين الرَّجُل؟ قال: مِن اليمن. قال: كيف خلفت بها محمداً؟ قال: عريضاً جسيماً. قال: لم أسألْكَ عن هذا، وإنما سألتُك عن سيرته. قال: تركتُه ظلوماً غشوماً. قال: أَوَ ما عَلِمْتَ أنَّه أخي؟ قال: يا حجاج أَوَ ما عَلِمْتَ أَنَّ الله ربِي، فترى أنَّك أعَزَّ عِنْدي مِنْ آداء حقِّ الله، فَبَكَى الحجاج، ثمَّ قال: ما فَرِحْتُ بِكَلِمَةٍ سَمِعْتُها مِثْلَ هذه[1].

إنجازاته الخالدة في اللغة والقرآن:-

وإنْ مِن يومٍ أو ليلة بل ودقيقة، يقرأ الناس إنجازات الحجاج في اللغة والقرآن الكريم وما هم لها بِمُدركين، ولا حتى بعالمين أنها من إنجازاته...

فالحجاج هو مَنْ أمَرَ بتنقيط الحروف في القرآن وغيرِه؛ حيث لم تَكُ حروف اللغة العربية منقطةً فكثر التَّصْحِيف[2] في قراءة القرآن في العهد الأمويّ، وخصوصاً بعد كثرة الفتوحات الإسلامية، ودخول عدد كبير من الأعاجم في الإسلام، فلمّا رأى الحجاج التَّصحيف منتشراً في العراق - وكان غيوراً على القرآن الكريم - فَزِعَ إلى كاتبيه نصر بن عاصم الليثيّ ويحيى بن يَعْمُر العدوانيّ - تلميذ أبو الأسود الدُّؤَلِيّ - وأمَرَهما أنْ يضعا علامات لتمييز الحروف المتشابهة. وكانت عامة المسلمين تكره أنْ يزيد أحدٌ شيئاً على مصحف عثمان ولو كان في صالح المسلمين، وبعد التفكير والمراجعة والبحث والتَّرَوِّي، قرَّرَ نَصْر ويحيى - وكانا مِنَ التَّقْوَى بحيث لا يُتَّهمان في دينِهما - وَضْعَ الحروف بشكلها الحالي وكتابتها بنفس لون الحِبْر لأنَّ نُقَطَ الحرف جزء مِنْه[3]. وأصدر الحجاج أمره لِكُتَّاب الإمارة باتِّباع هذه الطريقة في كل المصاحف والكتابة كلها، وأبْلَغَ الحجاج عبد الملك بن مروان فاستحسن ذلك وحَمَلَ النَّاس عليه، حتى عَدَّ إهمال وَضْع النِّقاط خَطأ في الكتابة يستحق فاعله الملام، واستمر هذا الأمر إلى الآن[4].

---

(1) الجليس الصالح والأنيس الناصح ص222.
(2) التصحيف: هو تَغيير الكلمة إلى الخطأ، فالمقصود بها هنا: الخطأ في قراءة الكلمة. (المعجم الوسيط ص508).
(3) موسوعة علوم اللغة العربية ج2 ص295.
(4) تاريخ الخط العربي وآدابه ص84 : 86.

فالعرب والمسلمون قديماً وحديثاً مدينون للحجاج بهذا الفِعْلِ العَظيم؛ الذي حفِظَ القرآن الكريم من أي احتمالية ولو كانت ضئيلة من تحريف القرآن الكريم - والكارهون كثير -، والعربية مدينة له بتسهيل القراءة والكتابة بها.

روايته للحديث:-

وكانَ الحجاج مُحَدِّثاً، وَمِثْله لَمْ يَكُنْ لِيُكْذَبَ عَلَيه؛ حيث كان يَفْطِنُ لأسلوبِ المتكلِّم والكاتب كما ذكرتُ سابقاً، فسَمِعَ ابنَ عباس، وروى عن أنس بن مالك، وسَمُرَة بن جُنْدُب، وعبد الملك بن مروان، وأبي بُرْدة بن أبي موسى.

ورَوَى عنه أنس بن مالك، وثابت البُنانيّ، وحُمَيْد الطويل، ومالك بن دينار، وجوّاد بن مجالِد، وقُتَيبة بن مسلم، وسعيد بن أبي عروبة، وموسى بن أنس بن مالك، وأيوب السَّخْتياني، والرَّبيع بن خالد الضبيّ، وعوف الأعرابِيّ، والأعمش وقُتَيبة بن مُسلِم وغيرهم[3][2][1].

وكانت له بدمشق دور منها دار الرَّاوية بقُرْبِ قصر بن أبي الحديد.

ويقول صاحب لسان الميزان: فلولا ما ارتكبه من العظائم والفتك والشر لمشى حاله[4].

***أقول: وقد فَصَّلنا في سبب ما فعل وكيفيته، مما يجعله أهلاً للثقة.**

قال ابن شَوْذَب، عن مالك بن دينار: سمعتُ الحجاج يَخْطُب، فلم يَزَلْ بيانُه وتَخَلُّطُه بالحُجَجِ حتى ظَنَنْتُ أنَّه مَظْلُوم[5].

ورُوِيَ من طريق المغيرة بن مسلم، نبأنا سالم بن قتيبة بن مسلم، قال: سمعتُ أبي يقول: خطبنا الحجاج بن يوسف فذكر القبر، فما زال يقول: إنه بيت الوِحْدَة، وبيت الغُرْبة، حتى بكى وأبكى مَنْ حَوْلَه، ثم قال: سمعتُ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان يقول: سمعتُ مروان يقول في خُطبتِه: خطبنا عثمان بن عفان فقال في خُطبَتِه: ما نظر رسول الله ﷺ إلى قبرٍ أو ذَكَرَه إلا بَكَى. وهذا الحديث له شاهد في سنن أبي داود وغيره.

---

(1) البداية والنهاية ج9 ص298، 299.

(2) الجرح والتعديل ج3 ص168.

(3) تهذيب التهذيب ج1 ص363.

(4) لسان الميزان ج2 ص567.

(5) تهذيب التهذيب ج1 ص363.

وفي الصحيح: عن سَلّام بن مسكين، قال: بَلَغَني أنَّ الحجاج قال لِأنَس: حَدِّثْني بأشدِّ عقوبة عاقب بها النبي ﷺ، قال: فَحَدَّثَه بِحَديث العُرَنِيين.

وفي سُنَن أبي داود من رواية الرَّبيع بن خالد الضَّبِّيّ، قال: سَمِعْتُ الحجاج يخطب فذَكَرَ قصة[1].

وساقَ من طريق أحمد بن عبد الجبار: حدثنا سَيَّار، عن جعفر، عن مالك بن دينار قال: دَخَلْتُ يوماً على الحجاج فقال لي: يا أبا يحيى ألا أُحَدِّثُك بحديث حسن عن رسول الله ﷺ؟ فقُلْتُ: بَلَى! فقال: حدثني أبو بُرْدَة، عن أبي موسى. قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ كانت له إلى الله حاجة فَلْيَدْعُ بها في دُبُرِ صلاةٍ مفروضة). وهذا الحديث له شاهد عن فضالة بن عُبَيدٍ وغيرِه في السنن والمسانيد[2].

وقال البخاري في كتاب الحج: حدَّثنا مُسَدَّد، عن عبد الواحد، حدَّثنا الأعْمَش، قال: سَمِعْتُ الحجاج بن يوسف على المنبر يقول: السورة التي تُذْكَرُ فيها البقرة، والسورة التي يذكرُ فيها آل عمران، والسورة التي تُذكرُ فيها النساء، قال: فَذَكَرْتُهُ لإبراهيم، فقال: حدَّثَني عبد الرحمن بن يزيد أنه كان مع ابن مسعود حين رَمَى جمرَةَ العقبة، فذكر الحديث. وفيه: مِنْ هاهنا والذي لا إله غيرُه، قام الذي أنزلت عليه سورة البقرة.

ورواه مسلم أيضاً من حديث الأعمش في بعض طُرُقِه هكذا[3]، وغيره أيضاً، وقد وَقَعَ من كلامِه في الكتب الستة، وفي مُسْنَد أحمد أشياء، فلا اختصاص بنسبته للبخاري[4].

---

(1) تهذيب التهذيب ج1 ص364.
(2) البداية والنهاية ج9 ص299.
(3) تهذيب التهذيب ج1 ص364.
(4) تعجيل المنفعة ج1 ص432.

بعض ما قيل في حقه من أساطير وغيرها

لقد قيل في الحجاج الكثير والكثير، منها روايات كان الغرض منها تشويهه، ومنها روايات كان الغرض منها تسليةً للقُرَّاء والسُّمَّاع بالشِّعْرِ والبلاغة، ومنها روايات لا تعدو على أن تكونَ مَحْضُ أساطير، نذكرُ لكم منها بعضها.

قال شريك القاضي، عن عبد الملك بن عُمَيْر قال: قال الحجاج يوماً: من كان له بلاءٌ أعطيناه على قَدْرِه. فقام رجلٌ فقال: أعْطِني فإني قَتَلتُ الحسين. فقال: وكيف قَتَلتَه؟ قال: دَسَّرْتُه بالرُّمْحِ دَسْرا، وهبرته بالسيف هبرا ، وما أشركتُ معي في قتلته أحدا. فقال: اذهبْ، فوالله لا تجتمع أنتَ وهو في موضعٍ واحد. ولَمْ يُعطِهِ شيئاً.

*وبالرَّغم من الاختلاف على الراوي عبد الملك بن عُمَير[1] في جَرحه وتعديله، إلا أنَّ الحجاج فيها لَمْ يُعْطِ مَن ادَّعى قَتْلَ الحُسَيْنِ شيئاً، لافتخاره بقتل حفيد الرسول ﷺ، وهذا إن صَحَّت الرواية.

وقال الهيثم بن عَدِيّ: جاء رجلٌ إلى الحجاج فقال: إنَّ أخي خرج مع ابن الأشعث فَضُرِبَ على اسمي في الديوان وَمُنِعْتُ العطاء، وقد هُدِمَتْ داري، فقال الحجاج: أما سَمِعْتَ قولَ الشاعر:-

جَانِيك مَنْ يجني عَلَيْكَ وَقْدٌ[2]	تُعْدِي الصِّحَاحَ مبارِكُ الجَرَبِ
ولَرُبَّ مأخـوذٍ بِذَنْبِ قريبِـهِ	وَنَجَا المُقارِفُ صاحِبُ الذَّنْبِ

فقال الرجل: أيها الأمير! إني سمعتُ الله يقول غير هذا، وقول الله أصدق من هذا، قال - الحجاج - : وما قال؟ قال: ﴿قالوا يَـا أيها العزيز إنَّ لَهُ أباً شَيْخاً كَبِيْراً فَخُذْ أَحَدَنا مَكَانَه إنَّا لَنَرَاكَ مِنَ المُحْسِنين ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللهِ أنْ نأخُذَ إلا مَنْ وَجَدْنا مَتاعَنا عِنْدَه إنَّا إذاً لَظالِمون ﴿٧٩﴾﴾[3] . قال يا غُلام أَعِدْ اسمَه في الدِّيوان وابْنِ دارَه، واعْطِهِ عَطاءَه، ومُرْ منادياً يُنادي: صَدَقَ اللهُ وَكَذَبَ الشَّاعِرْ.

---

[1] سير أعلام النبلاء ج5 ص438 : 441.
[2] الوَقْد: النار، واتِّقاد النار. (المعجم الوسيط ص1048).
[3] سورة يوسف: الآية: 78، 79.

*وهذه الرواية تُسَوِّئ من سمعة الحجاج بطريقة أو بأخرى؛ حيث أنَّه بحسب الرواية، فإنَّ الحجاج قد أَخَذَ رجلاً مَظلوماً بِذنب أخيه الظالم، فدلَّ على ظُلْمِه. إلا أنَّ راويها كَذّابٌ عُرِفَ بِكَذِبه[1]، ولا أُصدِّقُها فالحجاج لَنْ يأخُذَ شَخْصاً بِذَنْبِ آخر، فليس هذا ما عُرِفَ عَنه من نَشأتِه وحثِّه على مكارِمِ الأخلاق. ومع ذلك، فإنَّها لَمْ تَستَطِع أيضاً تشويه الحجاج بصورة كاملة، فبِحَسْبِها فإنَّ الحجاج أعْطى الرَّجُلَ حَقَّه في مَظلَمَتِه.

وقال الهيثم بن عَدِيّ أيضاً، عن ابن عباس: كتب عبد الملك إلى الحجاج أن ابعث إليَّ برأس أسلم بن عبد البكريّ لِمَا بلغني عنه. فَأحْضَرَه الحجاج فقال: أيها الأمير أنت الشاهد وأمير المؤمنين الغائب، وقال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾[2] وما بلغه عني فباطل، وإني أعولُ أربعةً وعشرين امرأةً ما لهنَّ كاسِبٌ غَيْري وهُنَّ بالباب، فأمر الحجاج بإحضارِهِنَّ، فلما حَضَرْنَ جَعَلَتْ هذه تقول: أنا خالتُه. وهذه أنا عمتُه. وهذه أنا أختُه. وهذه أنا ابنتُه. وهذه أنا زوجتُه. وتَقَدَّمَتْ إليه جارية فوق الثماني ودون العشرة، فقال لها الحجاج: من أنتِ؟ فقالتْ: أنا ابنتُه. ثم قالتْ: أَصْلَحَ اللهُ الأمير، وجَثَتْ على رُكْبَتَيْها، وقالتْ:-

أَحَجّاجُ لَمْ تَشْهَدْ مُقَامَ بَناتِه	وعَمَّـاتِه يَنْدُبْنَـه اللَّيْـلَ أَجْمَعَـا
أَحَجَّاجُ كَمْ تَقْتُلْ بِهِ إنْ قَتَلْتَهُ	ثَـمَانـاً وعَـشْـراً واثْنَتَيْنِ وأَرْبَعَـا
أَحَجَّاجُ مَنْ هذا يَقومُ مَقامَه	عَلَيْنا فَمَهلاً إنْ تَزِدْنا تَضَعْضُعَـا
أَحَجَّـاجُ إمـا أنْ تَجُوْدَ بِنِعْمَةٍ	عَلَـيْنــا وإمـا أنْ تُـقَـتِّـلَنـا مَـعَـا

قال: فبَكَى الحجاج، وقال: والله لا أَعْنَتُ عليكنَّ، ولا زِدْتُكنَّ تَضَعْضُعَا، ثم كتب إلى عبد الملك بما قال الرجل، وبما قالت ابنتُه هذه، فكتب عبد الملك إلى الحجاج يأمره بإطلاقه وحسن صلته، وبالإحسان إلى هذه الجارية، وتفقدها في كل وقت.

*وهذه الرواية وإن لم تَقْدَحْ في الحجاج، فإنَّها تَقْدَحُ في عبد الملك بن مروان، الذي عُرِف بِفِقْهه وتَدَيُّنِه وتقاه، فليس هو بالشَّخْصِ الذي يَحْكُمُ على امرئٍ بالإعدام - وهو أَشَدُّ حَدٍّ مِن حدود الله -، بمجرَّدِ السَّماع، فهذه العقوبة تحتاج إلى التَّثَبُّتِ مِنَ الجُرْمِ والتَّرَوِّي قبل إصدارِ الحُكْم. كما أنَّ هذا لَيْسَ بالشِّعْرِ الذي تُنْشِدُه فتاةٌ حديثة السّنِّ كتِلْك، وَهَبْ أنَّ الفتاة ذكية واسعة الإدراك منذ نعومة أظافرها، فلا يزال الراوي كَذّاباً مَعْلومُ الكَذِبِ كما ذكرنا سالفاً.

---

[1] سير أعلام النبلاء ج10 ص103، 104.

[2] سورة الحجرات: الآية: 6.

ومِنَ الأساطير التي قيلَتْ في الحجاج ما ذَكَرَه محمد بن زياد عن ابن الأعرابي فيما بَلَغَه أنَّه كان رجل من بني حنيفة يُقالُ له جَحْدَر بن مالِك وكان فاتِكاً بأرض اليمامة، فأرسَلَ الحجاج إلى نائبِه يؤنّبُه ويلومُه على عدم أخْذِه، فما زال نائبُها في طَلَبِه حتى أسَرَه وبعث به إلى الحجاج، فقال له الحجاج: ما حَمَلَكَ على ما كُنْتَ تَصْنَعه؟ فقال: جراءة الجنان، وجفاء السُّلطان، وكَلَبُ الزَّمان، ولو اخْتَبَرَني الأمير لَوَجَدَني مِنْ صالِحِ الأعوان، وشَهْمِ الفُرْسان، ولوَجَدَني مِنْ أَصْلَحِ رَعِيَّتِه، ذلك أنِّي ما رأيْتُ فارِساً قَط إلا كُنْتُ عَلَيْهِ في نَفْسي مُقْتَدِراً، فقال له الحجاج: إنّا قاذِفوكَ في حائرٍ فيه أسَدٌ عاقِر، فإنْ قَتَلَكَ كفانا مُؤنَتَك، وإنْ قَتَلْتَه خَلَّيْنا سَبيلَك. ثمَّ أوْدَعَه السِّجْنَ مُقَيَّداً مَغْلولةٌ يَدُه اليمنى إلى عُنُقِه، وَكَتَبَ الحجاج إلى نائبه بِكَسْكَر أنْ يَبْعَثَ بِأسَدٍ عَظيمٍ ضارٍ، وقد قال جَحْدَرُ هذا في مَحْبَسِه هذا أشعاراً يَتَحَزَّنُ فيها على امرأتِه سُلَيمى أمُّ عمرو ويقولُ في بعضِه:-

أَلَيْسَ اللّيْلُ يَجْمَعُ أُمَّ عَمْروٍ   وإيــانا فــذاكَ بِنـا تُــداني
بَلَى وترى الـهلالَ كما نَراهُ   ويَعْلُـوْها النَّهارُ كما عَلانِي
إذا جــاوَزْتُما نَـخْلاتِ نَجْدٍ   وأوْدِيَةَ اليـَمامَةِ فانْعَـياني
وقُوْلا جَحْدَرٌ أمْسى رَهيناً   يُحاذِرُ وَقْعَ مَصقولٍ يَماني

فَلَمَّا قَدِمَ الأسَدُ على الحجاج أمَرَ به فَجُوِّع ثلاثة أيام، ثُمَّ أبْرَزَ إلى حائر - وهو البُسْتان - وأمَرَ بِجَحْدَرٍ فأُخْرِجَ في قُيودِه ويدُه اليُمْنى مَغْلولَةٌ بِحالِها، وأُعْطِيَ سَيْفاً في يَدِه اليسرى، وخَلَّى بينَه وبين الأسَد، وجَلَسَ الحجاج وأصحابُه في مَنْظَرة، وأقْبَلَ جَحْدَرٌ على الأسَدِ يَقول:-

لَيْثٌ وَلَيْثٌ في مَجالٍ ضَنْكِ   كِـلاهُـما ذو أنْـفٍ وَمِـحَـكِ
وَشِــدَّةٍ في نَــفْسِـه وفَـتْـكِ   إنْ يَكْشِفِ اللهَ قناعَ الشَّكِّ
فَـهُوَ أَحَـقُّ مَـنْزِلاً بِـتركِ

فَلَمّا نَظَرَ إليه الأسَد زأَرَ زأرة شَديدة وتمطى وأقبل نحوَه فلمَّا صار منه على قدرِ رُمْح وَثَبَ الأسَدُ على جَحْدَرٍ وَثْبةً شَديدةً فتلقَّاه جَحْدَرٌ بالسَّيف فَضَرَبَه ضَرْبَةً خالَط ذباب السَّيْفِ لهواته، فَخَرَّ الأسَدُ كأنَّه خيمة قد صَرَعَتها الرِّيحُ مِن شِدَّة الضَّرْبَة، وسَقَطَ جَحْدَرُ مِنْ شِدَّةِ وَثْبةِ الأسَد ولِمَوْضِعِ القُيودِ عَلَيه، فَكَبَّرَ الحجاج وكبَّرَ أصحابُه وأنشأ جَحْدَرُ يقول:-

يــا جُــملُ إنَّك لَو رَأيْتَ كَرِيْهَتِي | فِي يومِ هَوْلٍ مُسْرِفٍ وعَجَاجِ[1]
وتَقَـدُّمي لليثٍ أسْــرَفُ مُوْثَـقاً | كَيْما[2] أُساوِرُه على الأخْـراجِ[3]
شُــثنٌ[4] بَـراثِـنُـــه كـأنَّ نُيوبَهُ | زُرْقُ المَعاوِلِ أو شباةُ زُجـاجِ[5]
يَسْمو بِناظِرتَيْنِ تَحْسَبُ فيهما | لَهَبـاً أَحَدُّهُـما شُعاعُ سِــرَاجِ
وكَـأنَّـما خِيطَتْ عَـلَيْهِ عَباءَةٌ | بَـرْقَـاءُ أو خَـرْقاً مِنَ الدِّيباجِ
لَعَلِمْتِ أَنِّي ذو حِفاظٍ[6] مـاجِدٍ | مِنْ نَسْـلِ أَقْـوامٍ ذَوي أبْراجِ

ثمَّ التَفَتَ إلى الحَجَّاجِ وقال:-

عَـلِـمَ النِّسـاءُ بِـأنَّنِي لا أَنْثَـنِي | إذ لا يَثِـقْـنَ بِـغِـيْرَةِ الأزْواجِ
وعَلِـمْتُ أنِّي إنْ كَـرِهْـتُ نِزَالَـه | أنِّي مِنَ الحَجَّاجِ لَسْتُ بِنَاجِي

فعند ذلك خَيَّرَه الحجاج إن شاء أقام عنده، وإن شاء انطَلَقَ إلى بلاده، فاختار المقام عند الحجاج، فأحسَنَجائزَتَه وأعطاه أموالاً.

*وهذه الرواية عبارة عن شِبه أسطورة أو هي شبيهة بما كان يفعله الملوك الرومان في مسارحهم بأن يُشاهدوا صِراعاً حتى الموت بين رجلين أو مجموعتين من الرجال أو رجال وحيوانات، ومن بين الحيوانات الأسود. حيث بيَّنَتْ لنا هذه الرِّواية أنَّ الحجاج رَجُلٌ مُتَعطِّشٌ للدِّماء، يتلَذَّذُ بتعذيب الآخرين ومعاناتِهم، مُجَرَّدٌ مِنَ أخلاقِ الشَّهامةِ والمُروءة العربية التي عُرِفَتْ حتى قَبْلَ الإسلام وفي الجاهلية مِنْ الأخلاق، والتَّكافؤ بين الخصمين أثناء الحرب أو المناوشة، لِدَرَجَةِ أنَّ بحسب الرواية أَمَر بِتَكْبيل يد جَحْدَر اليمنى إلى عُنُقِه كي يُعَجِّزَه عن الدِّفاعِ عَنْ نَفسِه، وقام بتجويع الأسد ثلاثة أيام. إلا أنَّ هذه القصة مُنْتَحَلة؛ فراويها ابن كادِش هو كَذّابٌ ومُخَلِّط ولا يُحتَجُّ به[7].

---

[1] عجاج: هو الغبار، والدخان، ورعاعُ الناس وغوغاؤهم. (المعجم الوسيط ص584).
[2] كيما: أي لِكَي ما.
[3] أساوره: أصارِعُه. (المصدر السابق ص461).
[4] شُثُن: أي غليظة خشنة. (المصدر السابق ص472).
[5] شباة زجاج: أي حدُّ طرفه. (المصدر السابق ص 472).
[6] الحفاظ: الذَّبّ عن المحارم والمنع عند الحروب، والوفاء بالعقد. (المصدر السابق ص185).
[7] سير أعلام النبلاء ج19 ص558 : 560.

وَعَلى افتراضِ أنَّ هذه الرواية صحيحة، فكيف يأمَنُ جَحْدَر البقاء في كَنَفِ الحجاج بعد أنْ ثَبُتَ له أنَّه لا أمان له؛ حيث أنَّ رَجلاً لا يتمتع بالأخلاق الأوَّلية للخصومة في الحرب والمبارزة عند العرب، فَكَيف يُؤمَنُ غَدْرُه؟! إلا أنَّ هذه لا تعدو على أنْ تكون أسْطُورة.

وقال علي بن عبد الله بن مبشر، عن عباس الدوري، عن مسلم بن إبراهيم: حدَّثَنا الصَّلْت بن دينار سمعتُ الحجاج على منبر واسط يقول: عبد الله بن مسعود رأس المنافقين، لو أَدْرَكْتُه لأسْقَيْتُ الأرضَ مِنْ دمِه.
قال: وسَمِعْتُه على منبر واسط وتلا هذه الآية:﴿وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغي لأحَدٍ مِنْ بَعْدي﴾[1]
قال: والله إن كان سليمان لحسودا.

*وهذه الرواية تُبَيِّن أنَّ الحاجاج كان يَتَّهِمُ عبد الله بن مسعود - الصحابي المعروف وأحد السَّابقين إلى الإسلام - بالنفاق، وأنَّه يَتَجرأ على نبيِّ الله سليمان عليه السَّلام مما يُوَصِّلُه إلى مَرْتَبة الكُفْر. إلا أن هذه الرِّواية غير صحيحة لأنَّ في سَنَدِها الصَّلت بن دينار، وهو ضَعِيف ليس بشئ[2].

وما رواه أبو داود أيضاً حدثنا إسحاق بن إسماعيل الطلقاني، حدثنا جرير. وحدثنا زهير بن حرب، وحدثنا جرير، عن المغيرة، عن الربيع بن خالد الضَّبِّيّ قال: سَمِعْتُ الحجاج يخطب فقال في خطبته: رسولُ أحَدِكم في حاجته أكْرَم عليه أم خليفته في أهله؟ فَقُلْتُ في نفسي: لله عَلَيَّ ألا أُصَلِّيَ خَلْفَكَ صلاةً أبدا، وإنْ وَجَدتُ قَوْماً يجاهدونك جاهدتُ معهم.

وزاد إسحاق: فقاتل في الجماجم حتى قُتِل[3].

*وليس أدَلُّ على عَدَمِ صحة هذه الرواية من قَوْلِ العَبَّاد في شَرْحِ سُنَنْ أبي داوود: أورد أبو داود هذا الأثر عن الحجاج وفيه :أنه خطب فقال في خطبته: رسول أحدكم في حاجته أكرم عليه أم خليفته في أهله؟ والمقصود من ذلك :معرفة الفرق بين هذا وهذا، وهذا الذي فهمه الربيع بن خالد الضبي؛ ولذا قال :لله علي ألا أصلي خلفك صلاة أبداً، وفهم أنه يفضل الخلفاء على الرسل والأنبياء، ومعلوم أن هذا لو حصل أو ثبت يكون ردة، ولكن الإسناد لم يثبت؛ لأن فيه المغيرة بن مقسم الضبي وهو مُدَلِّس، ثم أيضاً يحتمل ألا يريد تفضيل الخلفاء على الأنبياء وعلى الرسل، وإنما يريد أن الإنسان إذا أرسل إنساناً في حاجة له وكذلك

---

[1] سورة ص: جزء من الآية 35.
[2] الطبقات الكبرى ج9 ص279.
[3] البداية والنهاية ج9 ص307 : 310، 314

لو جعل أحداً يخلفه في أهله إذا غاب عنهم، فإن الذي يخلفه أولى من الذي يرسله في حاجة، فيكون من حيث المعنى لا شك أنه صحيح، وأما إذا أريد به المقارنة والموازنة بين الرسل وبين الخلفاء فإن هذا ردة والعياذ بالله وكُفْرٌ بالله عز وجل.

***فهذا الأثر لم يثبت، ولو ثبت أن الحجاج يقارن بين الرسل وبين الخلفاء فهذا ردة، وكلام الذي نذر لا شك أنه مبني على أنه فهمه أنه مقارنة بين الرسل وبين الخلفاء[1].**

ومِثْل هذا الكثير، فقد كان الرُّواة المُدَلِّسين يتبارون في الإنسابِ للحجاج أقوالٍ ليس له، وإنما هو بريءٌ مِنها؛ لِيُثْبِتوا ظُلْمَه وجُوْرَه. ومع الأسَف كان شانِئوا الحجاجِ كُثر، لأنَّه أكْبَرَ قامِعٍ للفتنة في عهدِ الدولة الأموية، حيث كان الوليد بن عبد الملك يقول بعدَ أن تولى الخلافة: (ألا إنَّ أميرَ المؤمنين عبد الملك كان يقول: إنَّ الحجاج جِلْدَةُ ما بين عَيْنَيّ، ألا وإنَّه جلدة وَجهي كُلّه)[2]، واجتَمَعَ مع كارهي الحجاج، أصحابُ الأهواء من كارهي الأمويين، وكارهي قُرَيشٍ بأكْمَلِها الذين يَرَوْنَ أنَّها انتَزَعَتْ حُلْمَ المُلْكِ من أيديهم، والشيعة الذين لم يشوِّهوا الحجاج فقط وإنما شَوَّهوا الخلفاء الراشدين بأكمَلِهم وكفَّروهم، ولا يزالون يكفرونهم إلى الآن - عدا الشيعة الزيدية -، والخوارج الذين قَتَلوا عثمان وعلياً رضي الله عنهما، وحاولوا قتل الحسن، لولا أنَّه أمَّنَ نَفْسه لأنَّه يعلم غَدْرَهم، وغيرهم وغيرهم الكثير...

وكان الضحية هو الحجاج، فَمُحِيَتْ مِنَ الأذهانِ حسناتُه وما أنْجَز، وبَقِيَتْ في الأذهان الكَذِبُ والبُهْتانُ، في حقِّه واجتزاءُ الأمور من سياقِها، فصَارَتْ صورتُه مشوَّهة، حتى أنَّ ما وَجَدتُ في جَرْحِه وتَعْديله في سِيَر أعلام النّبلاء عبارة عن سَبٍّ فيه...

ومَعْ ذلك، فإنَّ التاريخ مليءٌ بالغَثِّ والثَّمين، بالكارِهِ والحاقدِ، وأيضاً المُحِبِّ والمُؤيِّد، بالمُنْحاز والمحايِد، بالمُجْتَزِئ وبمَنْ أَعْطى الصورة كاملة، فَمَنْ قرأ وبَحَث وَصَل.

حيث يقول فيه صاحب تاريخ الأدب العربي: كان الحجاج من أعظم الرجال، ذَكَرَه ابن خلدون في (الوزراء الذين عَظُمَتْ آثارُهم وعفّت على الملوك أخبارُهم). فقد كان سياسياً قديراً، وإدارياً حازماً، وكان واسِعَ المعرفة بالعِلْمِ وبالناس. ولكنه كان قاسياً شديداً في الحق[3].

---

[1] شرح سنن أبي داود للعباد ج519 ص 22. (https://shamela.ws/book/37052/15780).
[2] قراءة في سيرة الحجاج بن يوسف الثقفي ص100.
[3] تاريخ الأدب العربي ج1 ص550.

موت الحجاج

ألا وإنَّ لكلِّ إنسانٍ نهاية، فمهما صَنَعَ الحجاج، وَفَتَحَ مِنْ بلاد ورَوَّض عباد، فدوام الحال من المُحال، وكُلُّنا إلى فَناء، وما لَمَعَ نَجمٌ إلا خَفَتَ ثم انطفأ، وَصَدَق أبو العَتاهية حيث قال:-

مَـا طَـارَ طَـيْرٌ فَـارْتَفَـع إلَّا كَـمَـا طَـارَ وَقَـعْ

ويبدو أنَّ حياة الحجاج المليئة بالأزمات والمخاطر والفتوحات والعمل قد أثَّرَت بالسَّلْبِ على صحَّتِه، وكان دائماً ما يتذكر الموت وأنَّه إلى الله راجع. ويبدو أنَّ الحجاج كان يَشعُرُ بِدُنُوِّ الأجل حين ناهز الخمسين من عمره، فَكَتَبَ إلى قُتَيْبة بن مسلم عامله على خُراسان: (إني نَظَرْتُ في عُمْري، فإذا أنا قد بَلَغْتُ خمسين سنة وأنتَ نَحْوي في السِّن، وإنْ امرأً سار إلى منهلِ خمسين عاماً لَقَمِنٌ[1] أنْ يكونَ دنا منه).

ويُقالُ أنَّ أحَدَ الشُّعراء قد سَمِعَ من الحجاج هذه العبارة فقال:-

وإنِ امْرأً قَدْ سارَ خَمْسينَ حِجَّةً إلى مَنْـهَلٍ مِـنْ وِرْدِهِ لَـقَريبُ

فقال الحجاج: (والله إنَّ الذي بَقِيَ مِنْ عُمْري لأشْبَهُ بما مضى مِنَ التَّمْرةِ بالتَّمْرة، ومن الماء بالماء):-

الدَّهرُ آخِرُهُ شِبْهٌ بِأوَّلِهِ يَـوْمٌ بِيَوْمٍ وأيَّـامٌ بِأيَّامِ

وَيَبْدو أنَّ الحجاج كانَ يُعاني من ارتفاعٍ في ضَغْطِ الدَّم وقُرْحَةٍ في المَعِدة، فكان يشكو من الصداع وطنين الأذنين وآلامٍ في المَعِدةِ وعُسْرِ الهَضْم، فَوَصَفَ له طبيبه الخاص (تياذوق) وصفاتٍ عِدَّة للقضاءِ على ما كانَ يَشكو منه لكنَّها لَمْ تُفْلِحْ.

وقد أُصيب الحجاج بالأُكْلَة فهي إمّا أنْ تَكونَ قُرْحَة قَدْ وَصَلَتْ إلى مَرْحَلَةٍ خطيرة قَضَتْ عليه، وإما أن تكون سرطاناً[2].
وأوْضَحَ العالِمِ الطِّبِّيّ ياسكين أنَّ القُرْحة الإثنا عَشْرِيّة تَظْهَر لدى أشْخاصٍ تتَّصفُ

---

[1] قَمِنَ: جَدُرَ به. (المعجم الوسيط ص760).
[2] تاريخ الأدب العربي ج1 ص 550.

شخصياتهم بالصَّلابة وفَرْطِ الوجدان وَعَدَمِ التَّحَمُّل ولدى أشخاصٍ أمناء إلى حدٍ بعيد، دقيقي المعاملة إلى حدِّ الوَسوَسة نشيطين إلى الأذى أحياناً.

ويَذكُر الدكتور بلانك (Planck) والبروفيسور ألفاريس (Alvarez) أنَّ أكثر هذا النَّوْع من القرحات يظهر لدى أصحاب النَّشاط العصبي والانفعال الزائد ويصفان مريض القرحة بأنَّه شخصٌ مُجْهَد وحقود.

ومعظم تلك الصِّفات كانت تتوفر عند الحجاج، بالإضافة إلى أنَّ حياتَه كُلَّها كانت مليئة بالأزمات، فما خرج من حرب حتى هَبَّتْ عليه أخرى، وما خرج على الدولةِ مُعْجَبٌ بِنَفسِهِ إلا وتلاه آخر، بالإضافة إلى كُرْهِ أهلِ العراق له بالرَّغم من كل إنجازاته، وموت ابناه أبان ومحمد وأخيه محمد.

ولمّأ أحَسَّ الحجاج باستفحال مرضه واحتمال وفاته - وكان في زمنِ خِلافة الوليد بن عبد الملك -، كَتَبَ له حتى يكون على بيِّنَة من الأمر فقال: (أمّا بعد فإني كُنْتُ أرعى غَنَمَك، أحوطُها حياطة النَّاصح الشَّفيق برعيَّةِ مولاه فجاءَ الأسَدُ فَبَطَشَ بالرَّعْيِ وَمَزَّقَ المَرْعَى كُلَّ مُمَزَّق، وَقَد نَزَلَ بِمَوْلاكَ ما نَزَلَ بِأيُّوب الصَّابِر، وأرْجو أنْ يَكُوْنَ الجَبَّارُ أراد بِعَبْدِه غُفْراناً لِخَطاياه وتَكْفيراً لِما حَمَلَ مِنْ ذُنوب). ثمَّ كَتَبَ في آخِرِ كِتابِه للوليد:-

إذا مـا لَـقِـيتَ اللهَ عَنِّي راضِيـاً	**فـإنَّ شِـفـاءَ النَّـفْسِ فيما هُـنالِكِ**
فَحَسْبِي بَـقـاء اللهِ مِنْ كُلِّ مَـيِّتْ	**وَحَسْبِي حيـاةَ اللهِ مِنْ كُـلِّ هالِكِ**
لَقَدْ ذاقَ هذا المَوْتَ مَنْ كانَ قَبْلَنا	**وَنَحنُ نَذُوقُ المَوْتَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكِ**
فَـإنْ مُتُّ فاذْكُـرْنِي بِذِكْـرٍ مُحَبَّبٍ	**فَقَدْ كـانَ جَـمّاً في رِضـاكَ مَسالكِي**
وإلّا فـفي دُبُـرِ الصَّـلاةِ بِـدَعْـوَةٍ	**يُلْقَى بِها المَسْجُـونُ في نـارِ مالِكِ**
عَلَيْـكَ سَـلامُ الله حيّـاً وَمَيِّتـاً	**وَمِنْ بَعْدِ مـا تَحْيـا عَتِيْقـاً لِمالِكِ[1]**

وبالرغم من شدَّة الأوجاع والآلام التي كان يعاني منها الحجاج، إلا أنَّه كان يحرص كُلَّ الحِرْصِ على الذهاب إلى المسجد لصلاة الجمعة، حتى قال بعضُهم: رأيتُهُ وهو يأتي الجمعةَ وقد كادَ يَهْلَكُ مِنَ العِلَّة.

[1] قراءة في سيرة الحجاج بن يوسف الثقفي ص363 : 367.

وقال الأصْمَعِيّ: لمّا مَرضَ الحجاج أرجفَ الناسُ[1] بموته فقال في خُطبته: إنَّ طائفةً مِنْ أهلِ الشِّقاق والنِّفاق نَزَغَ الشيطانُ بينهم فقالوا: مات الحجاج، ومات الحجاج فمه؟! فهل يرجو الحجاج الخير إلا بعد الموت؟ والله ما يَسُرُّني أنْ لا أموتَ وأنَّ ليَ الدنيا وما فيها، وما رأيتُ الله رَضيَ التَّخْليدَ إلا لِأهوَنِ خَلْقِهِ عليه إبليس، قال الله له ﴿إنَّك مِنَ المُنْظَرين﴾[2] فأنْظَرَهُ إلى يَوْمِ الدِّيْن، وَلَقَد دعا اللهَ العبدُ الصَّالِحُ فقال ﴿وَهَبْ لِيْ مُلْكاً لا يَنْبَغِيْ لِلأحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾[3] فأعْطاه الله ذلك إلا البقاء. ولقد طَلَبَ العبد الصَّالح الموت بعد أنْ تمَّ له أمْرُه، فقال: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِيْن﴾[4] فما عسى أنْ يكونَ أيُّها الرَّجُل، وكلُّكم ذلك الرجل، كأني والله بكلِّ حيٍّ مِنكُمْ ميِّتاً، وبِكُلِّ رَطْبٍ يابِساً، ثُمَّ نُقِلَ في أثيابِ أكفانِه فَخُدَّ له في الأرضِ ثلاثةَ أذْرُع طولاً في ذراعٍ عَرْضاً، فَأكَلَتْ لَحْمَه، ومَصَّتْ صَدِيْدَه، وانصَرَفَ الحبيبُ مِنْ وَلَدِه يقسم الحبيب من مالِه، إنَّ الذين يَعْقِلون يَعقلون ما أقول، ثمَّ نَزَل.

وَ أُصيبَ الحجاج في آخر أيامه بالحمَّى والآلامِ التي كادت تَفْتِكُ بِبطنِه، وكان يَذْكُرُ الله دائماً، حتى صار يُنْشِدُ عِنْدَ الموت:-

يا رَبِّ قَدْ حَلَفَ الأعْداءُ واجْتَهَدُوا	**بأنني رَجُـلٌ مِنْ ساكِنِ النَّارِ**
أيَحْـلِفُـوْنَ على عَـمْيـاءِ وَيْحَهُـمُ	**ما عِلْمِهِمْ بِكَثِيرِ العَفْوِ جَبَّارِ**

وقال: (اللهم اغْفِرْ لِي فإنَّهُم يَزْعُمُوْنَ أنَّكَ لا تَفْعَل).

وَكان الحجاج قد كَتَبَ وَصِيَّتَه بالآتي: (بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوْصى به الحجاج بن يوسُف أنَّهُ يَشْهَدُ ألا إله إلا الله وحدَه لا شريك له، وأنَّ محمَّداً عبدُهُ ورسولُه، وأنَّه لا يَعْرِف إلا طاعة الوليد بن عبد الملك، عليها يحيا، وعليها يموت، وعليها يُبْعَث، وأَوْصى بِتِسْعِمِئَةِ دِرْعٍ حديدٍ، سِتمِئةٍ مِنْها لِمُنافِقي أهْلِ العِراق يَغْزون بِها، وثَلاثِمِئةٍ للتّرك).

[1] أرجف الناس: أي خاضوا في الأخبار السيئة وذكر الفتن. (المعجم الوسيط ص332).
[2] سورة الأعراف: جزء من الآية: 15.
[3] سورة ص: جزء من الآية: 35.
[4] سورة يوسف: جزء من الآية: 101.

وماتَ الحجاج في رمضان سنة ٩٥هـ[2][1] وَلَمْ يَخْلُفْ إلا سَيْفاً ومُصْحَفاً وَعَشْرةَ دَراهمَ فِضَّة[3].

***ولمّا سَمِعَ أبو جعفر المنصور - الخليفة العباسي - وصية الحجاج، رَفَعَ رأسَه إلى أبي العباس الطوسيّ - وكان قائماً على رأسه - فقال: هذه والله الشِّيعة لا شيعتكم[4]؛ فكان أبو جعفر المنصور مُعْجَباً بولاء الحجاج للخليفة بِرَغْمِ قُوَّتِه، حيث جعلها سَيْفاً بَتَّاراً فِداءَ خليفته ودولته في حياته وبعد مماته، بأنْ أوصى بالسلاح الذي يملكه بأن يُقَسَّمَ بين أهْلِ العراقِ وأهل التُّرْك كي يحاربوا به، وجَعَلَ النَّصيبَ الأكبَر لأهل العراق رَغْمَ بُغْضِهِم له.**

وَيَبْدو أنَّ الحجاج لَمْ يَثِق بِأهْلِ العراق أنْ يَنْبِشوا قبرَه بعد موتِه فأوصى الحجاج لكاتبه ومولاه يزيد بن أبي مسلم: (إذا مِتُّ فلا تَكْتُمْ أمري، ومُرْ مَنْ يُنادي بِمَوْتِي، ثُمَّ أخْرِجْنِي مِنَ الباب الزَّابِي، فإذا فَرَغْتَ مِن دَفْنِي فَأَجْرِ الماء على قَبْري ثمَّ أثْرِه بالنَّفَر، وَلْيَكُن الحفرُ عَميقاً)[5].

ولمَّا ماتَ الحجاج لم يَعْلَمْ أحَدٌ بِمَوْتِه حتى أشْرَفَتْ جارية فبَكَتْ فقالتْ: ألا إنَّ مُطْعِمَ الطَّعام، وميتم الأيتام، ومُرَمِّلَ النِّساء، ومُفْلِقَ الهام، وسيِّدَ أهلِ الشَّام قد مات، ثُمَّ أنشأتْ تَقول:-

اليومَ يَرْحَمُنا مَنْ كانَ يَبْغَضُنا   واليومَ يَأمَنُنا مَنْ كانَ يَخْشانا[6]

وكانَ الأسَفُ عَميقاً في إخوانه وأنصارِه في العراق، كما فُجِعَ الخليفة الوليد بن عبد الملك حينما تَلَقَّى خَبَرَ مَوتِه، فَرُوِيَ أنَّه كانَ يَتَوَضَّأ وخادِمُه يَصُبُّ له الماء، وهو ساه، والماء يسيل، ولا يستطيع الخادم أنْ يَتَكَلَّم، ثُمَّ نَضَحَ الوليد الماء في وجه خادِمِه وقال له: (أناعِسٌ أنت!) ورَفَعَ رأسَهُ وقال: (ما تَدْري ما جاء الليلة؟!) فلمَّا أجابه الخادم بالنَّفي، صاح به الوليد قائلا: (وَيْحَك! ماتَ الحجَّاج!).
وقال الوليد حين مات الحجاج: (أما والله لئن سُئِلْتُ عَنْه ولَأُسْألَنّ! لَأَقُولَنّ: كانَ والله القَوِيُّ الأمين!).

---

(1) تاريخ الأدب العربي ج1 ص550.
(2) المعارف لابن قتيبة ص398.
(3) تاريخ الأدب العربي ج1 ص550.
(4) البداية والنهاية ج9 ص323 : 325.
(5) قراءة في سيرة الحجاج بن يوسف الثقفي ص370.
(6) البداية والنهاية ج9 ص324.

وَدَخَلَ الناس على الوليد يُعَزُّونه في الحجاج ويُثنون عليه، وكان عمر بن عبد العزيز عندَه، فالتَفَتَ إليه الخليفة لِيَقولَ فيه كما يقول الناس فقال: (يا أمير المؤمنين وهل كان الحجاج إلا رَجُلاً؟) فَرَضِيَها مِنْه. وقيلَ إنَّ عمر بن عبد العزيز لِمِ يُعَزِّ الوليد في الحجاج، فَسَأَلَهُ لِمَ لَمْ تُعَزِّني؟ فأجاب لأننا نحنُ نُعَزَّى فِيه يا أَمِيرَ المُؤمِنين[1]!

***ويبدو أنَّ عمر بن عبد العزيز كانَ كارِهاً للحجاج، لا أعْلَم هل لوُشاة الواشين وأصحاب الهوى له، أم غيرةً مِنْه؛ ولكن وَرَدَ أنَّ الوليد بن عبد الملك كانَ قَدْ عَزَلَ عُمَرَ بن عبد العزيز عن ولايتِه على المدينة لأنَّه كَتَبَ إليه يُخَوِّفُهُ مِنْ ظُلْمِ الحجاج على أهلِ العراق[2]. وسَبَقَ أنْ أطنَبْنا في أنَّ الحجاج لَمْ يَكُنْ ظالِما لأهلِ العراق، وإنَّما كانَ يُعاقِبُ مَنْ أجرَم.**

وقيل أنَّ الحجاج لمَّا حضرته الوفاة كان قد استَخْلَفَ على الكوفة والبصرة يزيد بن أبي كَبْشَة في الحرب والصلاة، وعلى خراجهما يزيد بن أبي مسلم، فأقَرَّهما الوليد على ما كان استخلفهما الحجاج عليه، وكذلك فعل بعمال الحجاج كلهم؛ حيث أقرَّهم على الأعمال التي كانوا عليها في حياته[3].

وَلَمَّا سَمِعَ الفَرَزْدَق خبَرَ مَوْتِ الحجاج رَثاهُ عند الوليد بن عبد الملك مُنْشِداً:-

لِـيَبْكِ عَـلى الحَجّاجِ مَن كانَ باكِياً	**عَلى الدينِ أَو شارٍ عَلى الثَّغْرِ واقِفِ[4]**
وَأَيتـامُ سَـوداءِ الـذِراعَـينِ لَم يَدَعْ	**لَها الدَهْـرُ مالاً بِالسِـنينَ الجَـوالِفِ[5]**
وَمـا ذَرَفَـت عَينـانِ بَـعدَ مُحَـمَّدٍ	**عَلى مِـثلِـهِ إِلّا نُفـوسَ الخَـلائِـفِ**
وَمـا ضُمِّنَت أَرضٌ فَـتَحمِلَ مِـثْلَهُ	**وَلا خُطَّ يُنعى في بُطونِ الصَحـائِفِ**
لِـحَزمٍ وَلا تَنكـيتِ عِـفريتِ فِـتْنَةٍ	**إِذا اِكتَحَـلَت أَنيــابُ جَرباءَ شارِفِ[6]**

---

[1] قراءة في سيرة الحجاج بن يوسف الثقفي ص373.
[2] النجوم الزاهرة ج1 ص226.
[3] تاريخ الطبري ج6 ص493.
[4] الشَّاري: المراد المجاهد في سبيل الله الذي يبيع نَفْسَه ابتغاء مرضاة الله، الثغر: المكان الذي يُخاف منه هجوم العدو.
[5] سوداءُ الذِّراعين: التي اسوَدَّت ذِراعاها مِنْ شِدَّة الضَّنْك، السنين الجوالف: السنين القحط الجدباء التي تذهب المال.
[6] جرباء: العام التي تَجْرَبُ فيها الإبِل، شارِف: الناقة المُسِنَّة، وقد شبّه الحرب بهما.

فَـلَـم أَرَ يَـومـاً كـانَ أَنـكـى رَزِيَّـةً	وَأَكـثَرَ لَـطّـاً لِـلعُيـونِ الـذّوارِفِ[1]
مِـنَ اليَـومِ لِـلحَجّاجِ لَـمّا غَدَوا بِهِ	وَقَد كـانَ يَحمي مُضلِعاتِ المَكالِفِ[2]
وَمُـهـمِـلَةٍ لَـمّـا أَتـاهـا نَـعِـيُّـهُ	أَراحَـتْ عَلَـيها مُهـمَلاتِ التَّـنايِفِ[3]
فَـقـالَتْ لِـعَبدَيْـها أَريحـا فَعَقِّلا بِالـطَّرايِـفِ[4]	فَـقَد مـاتَ راعي ذَوْدِنـا
وَماتَ الَّذي يَرعى عَلى الناسِ دينَهُم الـمُخـالِفِ[5]	وَيَضرِبُ بِالـهِندِيِّ رَأسَ
فَلَيْتَ الأَكُفَّ الدافِناتِ اِبنَ يوسُـفٍ	تَقَطَّـعنَ إِذ يَحْـثِينَ فَـوقَ السَـقايِفِ
وَكَـيفَ وَأَنتُـم تَنـظُـرونَ رَمَـيتُـمُ	بِـهِ بَينَ جَـوْلَي هُـوَّةٍ في الـلَـفـايِفِ[6]
أَلَـمْ تَعْـلَـموا أَنَّ الَّـذي تَـدفِـنونَـهُ	بِـهِ كـانَ يُرْعَى قـاصِيـاتُ الزَعانِـفِ[7]
وَكـانَت ظُـباةُ المَشْرَفِيَّةِ قَـد شَفى	بِها الـدِّينَ وَالأَضغانَ ذاتِ الخوالِفِ[8]
وَلَم يَكُ دونَ الحُكمِ مالٌ وَلَم تَكُـن	قُـواهُ مِنَ المُسْـتَرخِيـاتِ الضَّعـايِفِ
وَلَكِنَّها شَـزراً أُمِـرَّت فَـأُحكِمَتْ	إِلى عُـقَـدٍ تُـلْـوَى وَراءَ الـسَّـوالِـفِ[9]

---

(1) رزية: مصيبة، اللَّط: السَّتر والكتمان.

(2) غدو به: ساروا بجثمانه في النهار، مضلعات: معجزات، المكالف: الأمور الشاقة.

(3) المهملة: يقصد التي تُهْمِلُ مالَها غير خائفة عليه لاستتباب الأمان في عهد الحجاج ومحاسبة السارق أشَدَّ الحساب فلما مات الحجاج لم يبقَ من يحميها فأصبحتْ تَقلق عليه، التنايف: المراد الطول أو التفضيل.

(4) الطرايف: التي تبعد في المراعي إلى أطرافه الآمنة.

(5) الهنديّ: السيف.

(6) جَوْلَى: ناحيتَيْ، الهوة: المقصود بها الحفرة التي تُحفَرُ للميت ليُدْفَن بها.

(7) قاصيات: مبعدات في المراعي، الزعانف: جمع زعنفة وهي: الجماعة التي ليس لديها أصل واحد.

(8) المشرفية: هي المنسوبة إلى قُرى العرب تدنو من الريف اسمها "مشارف الشام"، وقيل أن النسبة إلى موضع في اليمن لا إلى مشارف الشام، الخوالف: أراد ذات الرداءة والفساد.

(9) شزراً أُمِرَّت: أي قتلت على غير استواء وهو أشد القتل، العقد: المقصود بها العهود، تلوى وراء السوالف: أي مثبتة في الأعناق.

يَقولُونَ لَمّا أَن أَتاهُم نَعِيُّهُ وَهُم مِن وَراءِ النَهرِ جَيشُ الرَّوادِفِ[1]

شَقينا وَماتَت قُوَّةُ الجَيشِ وَالَّذي بِهِ تُربَطُ الأَحشاءُ عِندَ المَخاوِفِ

فَإِن يَكُنِ الحَجّاجَ ماتَ فَلَم تَمُت قُرومُ أَبِي العاصي الكِرامِ الغَطارِفِ[2]

وَلَم يَعْدَمُوا مِن آلِ مَروانَ حَيَّةً تَمامَ بُدُوْرٍ وَجْهُهُ غَيرُ كاسِفِ

لَهُ أَشرَقَت أَرضُ العِراقِ لِنورِهِ وَأُوْمِنَ إِلّا ذَنْبَهُ كُلُّ خائِفِ[4][3]

وبالرَّغمِ من أن الفرزدق قد قال هذه القصيدة في حضرة الخليفة الوليد بن عبد الملك، إلا أنَّها احتوَتْ على كثير من صفات الحجاج حقيقةً وما كان قد صَنَعَ بافعل.

وقَدْ وَصَلَ نبأ وفاة الحجاج قُتيبةَ بن مسلم وهو يواصل غزواته فيما وراء النهر، فلمَّا عَلِمَ غُمَّ بالخبر وقَفَلَ راجعاً إلى مَرْوَ[5] ، وتمثَّل:-

لَعَمْرِي لَنِعْمَ المرءُ مِنْ آلِ جَعْفَرٍ بِحَوْرانَ أَمْسِي أَعْلَقَتْهُ الحبائلُ

فَإِنْ تَحْيَ لا أَمْلَلْ حَياتي وإنْ تَمُتْ فما في حياةٍ بَعْدَ مَوْتِكَ طائلُ[6]

وكُنْتُ أَوَدُّ أنْ أقولَ أنَّ الناس ظلوا يذكرون إنجازاته وحسناته ومناقبه الجمة في تاريخ الدولة الأموية ويترحمون عليه، ولكن ليست كل نهاية سعيدة.

فكان لهذه النهاية طابع خاص؛ حيث زَعَمَ المُدَلِّسونَ والكارهون للحجاج مِنْ أصحاب الأهواء والمذاهب السياسية المخالفة له والتي تفتِن الناس فأخمدها الحجاج بقوَّته، زَعَموا أنَّ مَرَضَه هذا كانَ عِقاباً مِنَ الله مِنْ أفْعالِه الظالِمَة - التي كُنَّا قد رَدَدنا عليها سابقاً -، مُطْنِبينَ في أساطيرَ في مَرَضِهِ ووفاتِه، مُستَكْثِرينَ عليه أنْ يَموتَ كما يموت الرِّجال، فرحين بموته كأنه نصر من الله عليه...

---

[1] الروادف: الذين هم وراء الجيش.

[2] القوارم: من عظم شأنهم وكرمهم.

[3] أي أومن مِن كل خائف إلا من كان مذنباً.

[4] ديوان الفرزدق ص368، 369.

[5] قراءة في سيرة الحجاج بن يوسف الثقفي ص372.

[6] تاريخ الطبري ج6 ص492.

حيث أتَوا بحكاية لا يُصَدِّقها عقل من أنَّ طبيبه أنزل في جوفه قطعة من اللحم، ثمَّ أخرجها فرآها مليأة بالدُّود[1]، وقد حاوَلْتُ الوصول إلى راوي الرواية، لكنني لم أفْلِحْ في ذلك، ولكن المؤكَّد أنَّ هذا لَيْسَ من الممكن طبياً.

وزَعَموا أنَّ الحجاج لَمْ يَدُمْ طَويلاً بَعْدَ مَقْتَلِ سعيد بن جُبَيْر، واختُلِفَ في المدة التي استمر فيها بعده، فَمِنْهُم من يرَى أنَّ الحجاج قد مَكَثَ بعدَ ابن جُبَيْر خمسةَ عَشَرَ يَوْماً، ومنهم مَنْ قال خمسين يوماً ومِنْهم مَن زادَها إلى ستةِ أشهر، إلا أنَّ الثابت أنَّ مَقتَلَةِ سعيد بن جُبير كانت في عام ٩٤هـ، ومَوْتَ الحجاج كانَ في أواخرِ عام ٩٥هـ، فكان الفرق بين وفاة كلٍ مِنْهما أكثَرَ مِنْ سَنَة.

وفي رواية أنَّ الحجاج أغمي عليه إغماء شديداً، فظنَّ أهله أنه مات حقاً فدفنوه!! ثم سمع الناس صيحاً في قبره، فأتوا إلى يزيد بن أبي مسلم كاتبه فأخبروه فركب في أهل الشام فوقف على قبره فتسمَّع وقال: (يرحمك الله يا أبا محمد: فما تدع القرآنَ حتى ميتاً!!).
وأوردت هذه الحكاية بِشَكل آخر، إذ قيل لما دُفِنَ الحجاج سمع جرس السلاسل من قبره!! فقال كاتبه: (رحمك الله يا أبا محمد ما تدع القرآن حياً وميتاً!) فضحك الناس من قوله[2].

ويُرْوَى أنه لما حضرته الوفاة، قال للمنَجِّم: هل تَرى مَلِكاً يَمُوت؟ قال: نعم. ولَسْتَ به، أرى ملكاً يموت يُسمى كُلَيْباً. قال: أنا والله كُلَيب، بذلك كانتْ سَمَّتنى أمي[3].

*فالحجاج الفقيه وكارِهُ الكَذِب سيأتي بالكذَّابِ كي يُخْبِرَه هل سوف يموت أم لا!
وغيرها من القصص والروايات والأساطير الباطلة القادحة في سيرة الحجاج...

وكان يومَ وفاته فَرَح لكلِّ شانئيه؛ حيث أنه لمّا سَمِعَ خصومَه بخبر وفاته تَجلْجَلوا فَرَحاً وطربوا بذلك، ومنهم من أقسمَ أنَّه في النار، ومنهم من حَلَفَ على زوجته بالطلاق ثلاثاً أنه في النار، ويوْمَها لَمْ يَنَم المسجونون فرحاً بخبر وفاته.

ولابد أنْ يَفرَح الفتَّان والسارق والمجرم بمَوْتِ مُعاقِبِهم، ولكن صاروا هم في نظر الناس الضحيا والمظلومين، والحجاج هو الطاغية.

---

[1] وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ج2 ص53.
[2] قراءة في سيرة الحجاج بن يوسف الثقفي ص369.
[3] المعارف لابن قتيبة ص397.

الخاتمة

ألا وإني قد شَرَعْتُ في هذا الكتاب وعَكَفْتُ عليه لِمُدَّة شَهْرٍ كامل، هالتني فيه شخصيَّته، وتأثَّرْتُ فيه بأعْمالِه البطولية والتي لم يَكِلُّ فيه ولم يَملّ من محاربة أهل الفتن والضلال، وكان يَرُدُّ الإساءة - الجريمة - بالعقوبة، حتى أمِنَ البَشَرُ في عَهْدِهِ وفي ولايتِه على حالِهم ومالهم في الداخل، وعظمَت الدولة بِفَضْلِه في الخارج وتوسَّعَت ثُمَّ اسْتَقَرَّت.

وبالرَّغم من شِدَّتِه التي كانَ يُبْديها دائماً، إلا أنه لم يكُن ليَشْدُد إلا بعد التَّمَهُّلِ والتَّحْذير مراراً، حتى إذا قَدَرَ، بَطَش، ومَعْ ذلك كان يَعْفو في كثيرٍ مِنَ الأحيان عن الخوارِج إذا أظهروا التَّسليم للخليفة أو أبْدَوْا النَّدَمَ واعْتَرَفوا بأخطائهم، ومما قرأتُ وَجَدتُ أنه كانَ يَتَلَمَّس أيَّ شيءٍ كان يمكن له العفو عن المجرمين.

كان الحجاج مُحِباً للقرآنِ مُعَظِّماً له، لا يَدَعَه أبَداً، كما أنَّ العربيَّةَ مَدينة للحجاج بتَسهيلها علينا، ونحن المسلمون مدينون للحجاج بِحِفْظِه مِن أيِّ محاولة للتحريف؛ إذ نَقَّطَ الحروف.

كان الحجاج فصيحاً شاعِراً، يُحِبُّ الشِّعْر والبلاغة، كما كان عبقرياً وصَّلَتْه عبقريته من مَعْرِفَتِه لصاحِبَ النَّص بِدُونِ أنْ يُخْبِرَه أحَد.

كما كانَ مُعَظِّماً للعلم والعلماء لَيِّناً معهم، حتى وَرَدَ أنَّه في مَرَّة أخَذَ يخيط ثَوْبَ الحَسَن البصري بنفسه[1].

---

[1] الجليس الصالح والأنيس الناصح ص235، 236.

يَزْعُمُ الكَثير من المؤرِّخين أنَّ الحجاج ظالِم وطاغية، ولكن جرَتْ عادةُ الطغاة أنْ يَكونَ لِطُغْيانِهم سبب، إمَّا لِنَهْبِ خَيْراتِ الدَّوْلة أو لاستغلال السُّلطة والتي تُفْضي في النهاية إلى نَهْبِ خيرات وأموالِ الدولة، فإن كانَ كلامُهم صحيحاً، فما هي الغاية مِنْ ظُلْمِه؟ هل البَحْثُ عن المال ونَهْبِ الخيرات؟ فالإجابة لا، لأنَّه لَمْ يَكْنِز لِنَفسِه شيئاً بَلْ أوْصى بما يملك من سلاح لأهل العراق والترك، وكان يُحاسِب عُمَّاله أشَدَّ الحساب في النَّفَقات، والمال الذي كانوا يُهْدِروْنه، حتى أهْلَه لَمْ يَسْلَمُوا من حسابِه. إذاً هل كان مُسْتَغِلاً لِسلطاته؟ لكن الإجابة أيضاً هي لا، إذ أنَّه لو كانَ كذلك، لَظَهَرَ في مُحاباته لأقاربه، والتَّساهلِ مَعَهُم، ولكنَّ الحقيقة أنَّ الحجاج كانَ إنْ عَيَّن قريباً لَه، فيكون من أجلِ رؤيَتِه أنَّه أهلٌ لها، موالياً للدولة، ولا يَمْكِنَ أنْ يَخْرَجَ عَلَيْها كما فَعَلَ البعْض، فإنْ أخْطأ حاسَبَه بَلْ وَسَجَنَه، واقتَطَع مِنْ أموالِه بِقَدْرِ ما أَخَذَ وَرَدَّها إلى بيت المال.

الحجاج بَشَرٌ لَمْ يَكُنْ نَبِياً، يُخْطئ كما نُخْطئ، ولكنَّ أخْطاءه لَيْسَتْ بشئ في بَحْرِ حَسَناتِه الكثيرة التي تَغافَل عنها مُعْظم المؤرخين، وزادوا مِنْ أخطائه واجتَزَأوا الأمور من سياقها وتَقَوَّلوا عليه وَدَلَّسوا.

وَعِنْدَ كتابَةِ مَوْتِه فاضَتْ عَيْناي، مِنْ كَثرَةِ ما لَقِيَ مِنَ الظُّلْم بِرَغْمِ حسناته، فلا هم عَتَقُوه حياً ولا همْ رَحَموه مَيِّتاً.

وبالرَّغْمِ مِنْ ذلكَ، هناك مَن يَبْحَث عن الحقيقة حتى الآن، ولَسْتُ أوَّلَ مَنْ كَتَبَ عن حياتِه وبَحَث عَنْه وَنَصَفَه، فَغَيْرِي الكثير والأعْلَم مني.

وبالرَّغْمِ مِنْ هذا الكتاب، إلا أنني لا أجِدُ نَفْسي مُنْصِفَة لشخصٍ بِحَجْمِه بالقدر الكافي.

أرجو من الله العلى القدير أن يَتَغَمَّدَه بِرَحْمَتِه، وأنْ يَحْشُرَنا وإياه مع النبيين والصدِّيقين والشُّهَداءِ والصَّالِحين وَحَسُنَ أولئك رفيقا، والله أعلى وأعْلَم.

تَمَّ بِحَمْدِ الله.

سارة زهير.

المصادر

1- أطلس تاريخ الدولة الأموية لسامي بن عبد الله بن أحمد المغلوث.
2- البدء والتاريخ للمطهر بن طاهر المقدسي ج6.
3- البداية والنهاية لابن كثير طبعة خاصة بوزارة الأوقاف والشئون الدينية دولة قطر ج9.
4- تاريخ الأدب العربي لعمر فروخ ج1.
5- تاريخ الإسلام للذهبي ج5.
6- تاريخ الخط العربي وآدابه لمحمد طاهر بن عبد القادر الكردي المكي الخطاط.
7- تاريخ الدولة الأموية للدكتور محمد سهيل طقوش.
8- تاريخ دمشق لابن عساكر ج12.
9- تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك) لابن جرير الطبري ج2.
10- تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك) لابن جرير الطبري ج5.
11- تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك) لابن جرير الطبري ج6.
12- التاريخ الكبير للبخاري ج2.
13- تعجيل المنفعة بزوائد رجال الأئمة الأربعة لابن حجر العسقلاني ج1.
14- تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني ج1.
15- الجرح والتعديل ج3.
16- الجليس الصالح والأنيس الناصح لسبط بن الجوزي.
17- جمهرة النسب لأبي المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي.
18- ديوان جرير.
19- ديوان الفرزدق.
20- سرح العيون في شرح شهادة بن زيدون لجمال الدين بن نباتة المصري.
21- سير أعلام النبلاء للذهبي ج4.
22- سير أعلام النبلاء للذهبي ج5.
23- سير أعلام النبلاء للذهبي ج10.
24- سير أعلام النبلاء للذهبي ج15.
25- سير أعلام النبلاء للذهبي ج19.

26- شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد ج1.
27- صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير) للألباني.
28- كتاب الطبقات الكبير (الطبقات الكبرى) للزهري ج9.
29- العقد الفريد لأحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي ج2.
30- قراءة في سيرة الحجاج بن يوسف الثقفي للدكتورة عزة علي آق بيق.
31- لسان الميزان لابن حجر العسقلاني ج2.
32- مروج الذهب ومعادن الجوهر تصنيف علي بن الحسين المسعودي ج3.
33- مشجرة أنساب العرب لعلي الحارثي.
34- المعارف لابن قتيبة.
35- المعجم الوسيط.
36- موسوعة علوم اللغة العربية للأستاذ الدكتور إميل بديع يعقوب ج2.
37- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ليوسف بت تغري بردي جمال الدين أبو المحاسن ج1
38- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان ج2.

الفهرس



الفهرس

الفهرس





الفهرس